ستيفان زفايغ

لاعب الشطرنج

ترجمة: سحر ستالة

رواية



ستيفان زفايغ

لاعب الشطرنج

رواية

ترجمة: سحر ستّالة

مسكيلياني للنشر

ألف راء

علامات في الرواية العالمية

سلسلة يديرها ظافر ناجي وشوقي العنيزي

لاعب الشطرنج

الكاتب: ستيفان زفايغ
عنوان الكتاب: لاعب الشطرنج
ترجمة: سحر ستّالة
مراجعة وتدقيق: شوقي العنيزي
خط الغلاف: الفنّان سمير قويعة
تصميم الغلاف: الشاعر محمّد النبهان
الناشر: مسكيلياني للنشر والتوزيع
15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة
الهاتف: 21512226(216+) أو 537090811(966+)
الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com
ر.د.م.ك: 978-9938-833-65-2

الطبعة الأولى: 2017

على سطح الباخرة الكبيرة التي كانت تتهيّأ لمغادرة نيويورك في منتصف الليل باتجاه بيونس أيرس. عمّت الحركة والضجّة مثلما يحدث دائما في اللحظات الأخيرة قبل السفر. وتوالت وفود الركّاب وهم يصعدون على متنها مُحاطين بحشد من الأصدقاء كانوا يتدافعون لتوديعهم. وكان موظفو البريد الشبّان يجوبون القاعات وقبّعاتهم مائلة على آذانهم مُطلقين العنان لأصواتهم وهم ينادون ببعض الأسماء. اختلط حمّالو الحقائب بحَمَلة الزهور. وشرع بعض الأطفال الفضوليين يصعدون الدرج وينزلون، فيما كانت الجوقة الموسيقية تعزف الديك شو[1] غير مبالية بأيّ شيء.

لذتُ بممشى الباخرة العلويّ، للنجاة بنفسي من كلّ هذه الضوضاء. وبينما كنت منشغلا بالحديث مع صديق لي، برق فجأة على مقربة منا وميضٌ مرّتين أو ثلاثًا: يبدو أن أحد المشاهير قد انتهى للتو من إجراء لقاء صحفي خاطف والتقاط بعض الصور. فألقى صديقي نظرة على المشهد وابتسم قائلا: «سيرافقكم في هذه الرحلة كزنتوفيك، إنّه شخص خارق!». ولمّا رمقته بشيء من الذهول وأنا أسمع هذه الكلمات، أضاف على سبيل الشرح: «ميركو كزنتوفيك، بطل العالم في الشطرنج. لقد جاب للتو أمريكا من شرقها إلى غربها، وانتصر في كل المباريات، وهو ذاهب الآن لإحراز انتصارات جديدة في الأرجنتين».

حينها، تذكّرت هذا البطل الشاب، بل وبعض تفاصيل مسيرته

(1) Deck-chow: هي دون شك عبارة ابتدعها ستيفان زفايغ.

اللامعة. واستطاع صديقي الذي كان مولعا بقراءة الصحف أكثر مني، أن يكمل حديثه بسلسلة كاملة من النوادر حول هذا البطل. لقد ارتقى كزنتوفيك خلال سنة واحدة فقط، إلى مصاف كبار أساتذة الشطرنج المشهورين حتى اليوم، مثل أليخين، وكابابلانكا، وتراكوفرر، ولاسكار، وبوغولجيبوف[1].

فمنذ ظهور رزورسكي، الطفل المعجزة البالغ من العمر سبع سنوات، في مباراة للشطرنج في نيويورك سنة 1922، لم يُحدث أيٌّ ظهور مفاجئ لأيّ غريب خارق ضجّةً كتلك التي أحدثها كزنتوفيك. ولعلّ مكمن الغرابة في ذلك، عائد أساسا إلى القدرات الذهنيّة لهذا البطل، إذ لم تكن تُنبئ على الإطلاق بأيّ مسيرة باهرة. ومهما ظلّت المعلومة طيّ الكتمان فإنّ مصيرها أن تُكشف: وبالعودة إلى حياته الخاصّة، كان بطل الشطرنج هذا، عاجزا عن كتابة جملة واحدة مهما كانت سهلة ومهما كانت اللّغة التي يكتب بها. دون أن يرتكب أخطاءً شنيعة في أبسط قواعد الإملاء. لقد كان عاجزا إلى درجة جعلت أحد منافسيه المغتاظين يقول عنه بسخرية خانقة: «إنّ جهله عليم بكلّ شيء».

كان ابنًا لبحّار يوغسلافيّ من حوض الدانوب، غرق بعد أن اصطدم قاربه الصغير في إحدى الليالي بسفينة محمّلة بالقمح.

(1) «ألكسندر أليخين»: (موسكو 1882 – البرتغال 1942) بطل العالم في الشطرنج من 1927 إلى 1935 ثم من 1937 حتى وفاته. «جوزيه راوول كابابلانكا»: (هافانا 1888، نيويورك 1945) بطل العالم في الشطرنج من 1921 إلى 1927. «اكزافيي تاراكوفر»: (روستوف-نا-دونو 1987 – باريس 1956) بطل العالم في الشطرنج ومنظّر، من مؤلفاته دليل الشطرنج (1937). «إيمانويل لاسكار»: (بروسيا 1860 – نيويورك 1941) عالم رياضيات و فيلسوف و بطل العالم في الشطرنج من 1894 إلى 1921. وصديق لأنشتاين. «بوغولجيبوف»: (كييف 1899 – جمهورية ألمانيا الفدرالية 1952) بطل العالم في الشطرنج من 1951 تحصّل على الجنسية الألمانية سنة 1927.

فاحتضن قسُّ القرية الطفل ولم يتجاوز الثانية عشرة بعد.

بذل الراهب الطيب مجهودا كبيرا في تعليم هذا الطفل الصَمُوت الخامل، ما لم يكن يقدر على تعلّمه في مدرسة القرية. ولكنّ كلّ جهوده باءت بالفشل. كان ميركو يحني جبهته العريضة على بضعة أحرف سبق وأن شُرحت له ألف مرة من قبل. ويظلّ يحملق فيها بنظراته الذاهلة وكأنّه يحملق في الفراغ. ولم تكن لذهنه الخامل القدرة على حفظ أكثر الدروس بداهة. حتّى أنّه أتمّ الرابعة عشرة وهو ما يزال يستنجد بأصابعه كلّما واجهته عمليّة حسابية. وكانت قراءة أيّ كتاب أو صحيفة تتطلب جهدا جبّارا من قبل هذا الفتى المراهق. ومع ذلك، لم يكن في وسع أحد أن يتّهمه بالسُخط أو بالتمرّد. فهو ينفّذ الأوامر بإخلاص. يذهب لجلب الماء. وقطع الخشب ويساعد العمّال في الحقل وينظف المطبخ. وينجز كلّ ما يُطلب منه بدقة فائقة وإن كان يؤديه ببطء مزعج.

ولكن أكثر ما كان يزعج القس الطيّب في هذا الطفل المحيّر هو لامبالاته التامة. فلم يكن يفعل شيئا إلّا إذا طُلب منه ذلك صراحة. لا يطرح أيَّ سؤال البتّة. ولا يلعب مع الأطفال الآخرين، ولا يندفع نحو أي عمل من تلقاء نفسه إلّا إذا تلقى أمرا بذلك. وما إن كان ميركو ينتهي من الأعمال المنزلية المعتادة حتى يجلس في الصالون، بلا حراك، بتلك النظرة التائهة الشبيهة بنظرة الأغنام في المرعى، دون أن يبدي أيّ اهتمام بكل ما يجري حوله. وفي المساء، حين كان القسّ يجلس مع صديقه ضابط الشرطة إلى رقعة الشطرنج ليتباريا كعادتهما كل يوم، والضابط ينفث دخان غليونه الطويل والقبيح الشكل، كان هذا الصبي ذو الشعر الأشقر يظلّ جالسا بالقرب منهما دون أن ينطق بكلمة واحدة وعيناه المثقلتان بالنعاس تحدّقان في مربّعات رقعة الشطرنج.

وفي إحدى أمسيات فصل الشتاء وبينما كان الشريكان مستغرقين في لعب مباراتهما المعتادة، سُمع رنين أجراس زحّافة جليدية تقترب بسرعة فائقة، وما لبث أن دخل فلاح بخطى متثاقلة وقلنسوته مغطاة بالثلج، وناشد القسّ أن يصطحبه ليمنح مباركته الأخيرة لوالدته العجوز التي كانت تحتضر، فتبعه الرجل دون تردّد، أمّا الضابط، ولم يكن قد انتهى من شرب كأس الجعة، فقد حشا غليونه وأشعله قبل أن يغادر، وكان يتهيّأ لارتداء حذائه الثقيل عندما تفاجأ بنظرة ميركو الثاقبة وهي تحدّق في رقعة الشطرنج والمباراة التي لم تكتمل بعد.

«حسنا، هل تودّ استكمالها؟» قال له مازحا وهو على يقين تامّ بأنّ هذا الفتى الخامل لن يتمكّن من تحريك حجر واحد على رقعة الشطرنج دون أن يرتكب خطأ.

رفع الصبيّ عينيه في خجل ثم أشار إليه موافقا وجلس مكان القسّ. ولم تمض أربع عشرة جولة إلّا وكان الضابط مهزوما، بل وكان عليه بالإضافة إلى ذلك أن يتقبّل الهزيمة على أنها لم تكن نتيجة طيش أو تقصير منه. وانتهى الدور الثاني بالطريقة نفسها.

«يا لها من معجزة، لقد نطق حمار النبيّ بلعام!»[1] صاح القسّ متفاجئا وشرح للضابط الذي كان أقلّ دراية منه بالتّوراة أنّ معجزة كهذه قد حدثت قبل ما يزيد عن ألفي سنة: في ما مضى حين نطقت فجأة إحدى الدواب كما ينطق الحكماء تماما. ورغم تأخّر الوقت لم يستطع القسّ أن يمنع نفسه من دعوة تلميذه الأمّي تقريبا لمنازلته. فهزمه هو الآخر بسهولة بالغة. كانت له طريقته الشرسة والبطيئة والثابتة في اللعب، دون أن يرفع جبهته العريضة عن رقعة الشطرنج

---

(1) حمار بلعام: العهد القديم (سفر العدد، الإصحاح 21، 22 و32) وهو راكب على أتانه، سمع القديس بلعام الحمار الموحى إليه من قبل ملاك يتوجه إليه بالكلام ويلومه على قسوته.

ولو للحظة واحدة. لكنه كان يلعب بثقة تامّة. ولم يكن الضابط ولا القسّ قادرين في الأيام التي تلت ذلك على هزيمته ولو لمرة واحدة. وأصبح لدى القسّ الذي كان يدرك أفضل من أيّ شخص آخر مدى غباء تلميذه، فضول كبير لمعرفة إلى أي حد ستظل هذه الموهبة الفذة والمنحصرة في مجال واحد صامدةً بشكل حقيقيّ.

لذلك أخذه من الغد إلى حلاق القرية، وبعد أن تركه يقص جمّة ميركو الشقراء ليبدو مظهره لائقا، اصطحبه على مركبته الجليدية حتى وصلا إلى المدينة الصغيرة المجاورة، حيث يوجد لاعبون مهووسون بالشطرنج كانوا يتجمعون في ركن من مقهى الساحة الكبرى، وقد اعترف هو نفسه ببراعتهم الفائقة وتفوّقهم عليه.

تفاجأ هذا الجمع من اللاعبين المثاليين عندما دخل القسّ مصطحبا هذا الصبي الأشقر ذا الخمسة عشر عاما بوجنتيه الحمراوين، وسترته المصنوعة من جلد خروف مقلوب وحذائه الثقيل. بقي الصبي مزروعا في أحد الأركان، ذاهلا، وعيناه مسمّرتان في الأرض إلى أن دعاه أحدهم إلى إحدى طاولات اللعب. هُزم ميركو في الجولة الأولى إذ لم يسبق له وأن شاهد خطة دفاع صقليّة[1] عند القسّ. وانتهت الجولة الثانية بالتعادل في مواجهة أمهر اللاعبين، ومنذ بداية الجولتين الثالثة والرابعة هزمهم جميعا واحدا تلو الآخر.

وهكذا أتيح لمدينة صغيرة في ريف يوغسلافيا أن تشهد حدثا من الأحداث المثيرة النادرة، وأجّجت بدايات هذا البطل القرويّ على الفور عاطفة قوية في نفوس الوجهاء المجتمعين فقرّروا بالإجماع أن يستبقوا هذا الفتى المعجزة في المدينة حتى صباح الغد ليتمكّنوا من

(1) خطة دفاع صقلية»: حركة معروفة جدا بين لاعبي النادي وتشمل أنواعا مختلفة وقع تدريسها منذ القرن السابع عشر.

جمع أعضاء النادي الآخرين وخاصة الكونت سيميكزيك العجوز المولع بالشطرنج والقابع في قصره. أمّا القسّ الذي بدأ ينظر إلى قرّة عينه بكل فخر، فقد عزّ عليه أن يخلّ، رغم متعة هذا الاكتشاف، بواجبات كنيسته ولا سيَّما قدّاس الأحد، وأعلن أنّه لا يمانع بقاء ميركو وحده لينازل بقيّة اللاعبين. فحُجزت للفتى غرفة في الفندق على حساب النادي، وفي تلك الليلة اكتشف حمّاما حقيقيّا لأوّل مرة في حياته.

في ظهيرة يوم الأحد كانت القاعة مكتظة باللاعبين. وقد ظل ميركو جالسا أمام رقعة الشطرنج بلا حراك وهزم كل منافسيه واحدا بعد آخر دون أن ينبس بكلمة واحدة أو أن يرفع عينيه. وفي النهاية اقترح أحدهم مباراة مشتركة، وقد تطلّب الأمر وقتا طويلا حتى يدرك هذا القرويّ الأبله معنى ذلك. وما إن فهم ميركو أنّهم يريدونه أن يلاعب وحده وفي الوقت ذاته عددا متفرّقا من اللاعبين حتى قبل على الفور، وأخذ ينتقل من طاولة إلى أخرى وحذاؤه الثقيل لا ينقطع عن إحداث الصرير. وفي النهاية انتصر عليهم جميعا بفارق سبع جولات مقابل جولة واحدة.

آنذاك، بدأت تنعقد اجتماعات كبيرة. ومع أنّ البطل الجديد لم يكن حقا ابن بلدتهم فقد استيقظ في سكانها الكبرياء والتعصّب لمدينتهم. فمن يدري؟ ربما حظيت هذه المدينة الصغيرة التي لم يستطع أحد تقريبا تحديد موقع لها على الخريطة، بمن يمنحها أخيرا شرف شهرة عالمية.

تطوّع متعهّد حفلات اسمه كولر، كان معروفا بوكالة المغنيات والنجمات في حانة الغرنيزون، ووافق على أن يعهد بالصبي إلى أستاذ مرموق كان يعرفه في فيينا، وهو خبير في فن الشطرنج، على أن يتكفّل واحد منهم بدفع نفقة إقامة الفتى في تلك العاصمة لمدّة

سنة كاملة. وبما أنّ الكونت سيميزيك لم يلتق طوال ستين سنة من الممارسة اليومية لفن الشطرنج بمنافس مثله، فقد تقدّم ودفع المبلغ المطلوب فورا. ومنذ تلك اللحظة بدأت بالفعل المسيرة المدهشة لابن البحار في الطريق إلى قمّة المجد.

ولم تمض ستة أشهر، إلّا وكان ميركو مُلمّا بكل أسرار لعبة الشطرنج، ولو أنّ إتقانه لها ظلّ بصفة محدودة جعلت مجموعة من العارفين في هذا المجال يتخذونه موضع سخرية في مجالسهم بعد ذلك. إذ لم يسبق أبدا لكزنتوفيك وأن لعب ولو مرّة واحدة مباراة لا إرادية أو على نحوٍ أعمى كما يقول لاعبو الشطرنج. لقد كان عاجزا تماما عن تمثّل رقعة الشطرنج في الفضاء اللانهائي لمخيلته. وكان يجب أن يشاهد بعينيه وبشكل دائم الرقعة الخشبية البيضاء والسوداء بمربّعاتها الأربعة والستّين وأحجارها الاثنين والثلاثين، وحتّى عندما ذاعت شهرته في العالم بأسره، فقد ظلّ يحمل معه دائما رقعة شطرنج مصغّرة، كي يتمكن من تمثّل الأحجار والمربّعات إذا كان يرغب في إعادة تشكيل مباراة محترفة أو كي يقدر على حلّ مشكلة طارئة. وقد كان هذا العجز التافه في حد ذاته كافيا للكشف عن قصور حادّ في المُخيّلة، وهو ما أثار كثيرا من النقاشات الحادّة في محيطه المقرّب، ومثّل علامات تعجّب كبرى لهم كما لو أنّهم مجموعة من الموسيقيين يشاهدون بأعينهم عازفا ماهرا أو قائد أوركسترا عاجزا تماما عن العزف أو عن القيادة فقط لأنّ التوليفة الموسيقية غير مفتوحة أمامه.

ولكن هذا القصور لم يعق ميركو عن تسلّق سلّم الشهرة بشكل مُبهر. فحين بلغ السابعة عشر من عمره، انتزع ما يقارب عن اثنتي عشرة جائزة وعندما أدرك الثامنة عشر كان بطل النمسا. ولم يبلغ العشرين إلّا وهو بطل العالم. لقد كان الأبطال الأكثر جرأة، الأبطال

الذين يفوقونه علما وخيالا وجسارة، يقعون ضحية منطقه العنيد والصارم تماما مثلما هُزم نابوليون أمام كوتوزوف البطيء[1].

أو حنبعل أمام فابيوس ماكسيموس[2] المؤقت الذي عُرف هو أيضا بطبعه الهادئ وبغبائه الشديد في طفولته حسب ما جاء في حديث تيتوس ليفيوس عنه.

وهكذا اقتحم المجلس المجيد لأساتذة الشطرنج، المجلس الذي يجمع كل المثقفين على اختلاف توجهاتهم من فلاسفة وعلماء رياضيات. والنوابغ المعروفين بسعة الخيال والطاقة المتجدّدة على الإبداع.. دخيلٌ غريب تماما عن عالم الفكر، فتى قرويّ بطيء الحركة وصموتٌ، حتى الصحفيون الأكثر مكرا وحنكة لم يتمكنوا أبدا من الظفر بعبارة واحدة منه، عبارة واحدة صالحة لمقالاتهم الصحفيّة. ولكن لا بأس فقد تكرّم عليهم غباؤه بما يملأ صفحاتهم بمواضيع السخرية، إذ حالما ينهض من أمام رقعة الشطرنج في الجولة الثانية، الرقعة التي كان أمامها لاعبا لا أحد يضاهيه مهارة، يتحوّل كزنتوفيك على الفور إلى شخصية مثيرة للسخرية والضحك رغم وقار بدلته الرسمية السوداء وفخامة ربطة عنقه المزدانة بلؤلؤة برّاقة. ومع أنّ أظفاره مشذّبة بعناية، فإنّه ظلّ وفيّا في حركته وسلوكه لصورة القرويّ الجلف الّذي كنس حجرة القسّ مرارًا في صباه. لقد كان أخرق وعنيفا بكل وقاحة، لا يطفح في الغالب بغير الجشع والدناءة والقبح، ولا يشغل باله إلّا استغلال موهبته وشهرته لتحصيل أقصى ما يمكن جنيه من الأموال، وهو ما كان يثير سخرية منافسيه واستياءهم. كان ينتقل من مدينة

---

(1) طوال الحملة الروسية أرغم هذا الجنرال الروسي (1813/1748) نابوليون على التراجع باتباع سياسة الأرض المحروقة.

(2) فابيوس ماكسيموس: رجل سياسي وعسكري روماني (275/203 ق.م.) شن حرب استنزاف على الجنرال القرطاجي حنبعل رافضا أي معركة مرتّبة.

إلى أخرى، مقيما دائما في الفنادق الأكثر تواضعا ولا يتردّد في اللعب داخل النوادي الأكثر بؤسا شريطة أن يحصل على كلّ قرش يطلبه، مثلما لم يتردّد لحظة في وضع صورته على إحدى اللافتات الإشهاريّة لأحد أنواع الصابون غير عابئ بسخرية منافسيه، وهو يدرك أنهم يعرفون جيّدا عجزه عن كتابة ثلاث جمل خالية من الأخطاء، بل إنّه باع اسمه لناشر طموح ليضعه على كتاب بعنوان فلسفة لعبة الشطرنج كتبه في الحقيقة طالب من غاليسيا[1].

ومثل كلّ المتصلّبين العنيدين لم يكن ينتابه أيّ إحساس إزاء سخرية الآخرين، فمنذ ظفر ببطولة العالم وهو يعتبر نفسه أهم رجل على الأرض، ذلك أنّ شعوره بالانتصار على كل هؤلاء الخطباء والكتّاب الأذكياء الباهرين ودحرهم على أرضهم، هذا الشعور الذي عمّقه في الواقع ربحه للمال أكثر منهم، حوّل خجله الفطريّ إلى كبرياء فاتر لطالما كان يظهر بطريقة فظّة.

ولكن كيف نريد ألّا ينقلب رأسه الفارغ بانتصار سريع إلى هذا الحدّ؟ ذلك ما توصّل إليه صديقي بعد أن عرض عليَّ بعض الأمثلة الواضحة عن غرور كزنتوفيك السخيف. كيف لفتى قرويّ في الحادية والعشرين من عمره، قادم حديثا من قرية مجهولة في مدينة مجهولة، ألّا يدور رأسه بالغرور وهو يرى أنّ نقل بعض الأحجار على لوح خشبيّ كفيل بجعله يغنم من المال في ظرف أسبوع ما لا يحلم كلّ سكّان قريته بجمعه خلال سنة كاملة من الشقاء في الغابات والحقول وهم يقتلون

(1) غاليسيا: مدينة تاريخية تقع شرق أوروبا: مدينة فلاحية، تتقاسمها اليوم كل من أوكرانيا وبولونيا. تسكنها عديد العرقيات (روس وبولونيون وألمان وأرمن ويهود ومولدوفيون ومجريون وغجر) وانضمت غاليسيا إلى النمسا بين 1945 و1956. من أهم مدنها تيميشوارا وكاراكوف. هي الأرض التي هاجر إليها جوزيف روث ومارتان بوبر ومانس اسبربر وهارون ابلفيلد وأيضا المصورة الفوتوغرافية الملتزمة غيردا تارو.

أنفسهم بقطع الأشجار والأعمال الشاقّة الأخرى. وفوق ذلك، أليس من السُخف أن يتصور أحدهم أنه في أعماقه رجل عظيم وهو لم يسمع قط بوجود رامبرنت وبيتهوفن ودانتي ونابليون؟.

شخص بهذا الذهن البليد لا يفكّر إلّا في شيء واحدا فقط: وهو أنه لم يخسر مباراة شطرنج واحدة منذ شهور. فليس من الغريب أن يمتلأ بذاته إذن، طالما أنّه لا يشكّ لحظة في وجود قيم أخرى في العالم غير الشطرنج والمال.

لم تلبث ملاحظات صديقي الأخيرة أن أثارت فيّ فضولا محتدما. فلطالما انبهرت في حياتي بالهواجس على اختلاف أنواعها، وبالأشخاص المهووسين بفكرة واحدة، إذ كلّما ضاق أفق أحدهم، اقترب أكثر فأكثر من اللانهاية. وهؤلاء الأشخاص تحديدا، من يبدو أنّهم اعتزلوا العالم، يبنون بأنفسهم، وبأدواتهم الخاصة عالما مصغّرا مثلما تفعل ديدان الخشب، عالما متفرّدا ولا نظير له. لذلك لا أخفيكم نيّتي في تفحّص هذه العيّنة الغريبة بوصفها مثالا عن الذهن المحدود خلال الأيّام الاثني عشر التي ستستغرقها رحلتي نحو مدينة ريو.

لكن صديقي حذرني قائلا: حظوظك في بلوغ ذلك ضئيلة. فعلى حدّ علمي لم ينجح أيّ شخص حتّى الآن في انتزاع علامة واحدة من دواخل كزنتوفيك، فهذا القرويّ الجلف يخفي خلف غياهب غبائه مكرا لا حدّ له، يستخدمه باستمرار لحجب نقاط ضعفه، وبطريقة سهلة جدا: فهو لا يتحدّث إلّا مع أمثاله من القرويين الذين يصادفهم في الفنادق البائسة التي يحلّ بها. وحالما يلمح شخصا مثقفا، ينطوي داخل قوقعته، وهكذا لا يستطيع إنسان أن يتبجّح بأنه سمعه يقول حديثا سخيفا أو بأنه استطاع سبر أغوار جهله اللاّمحدود.

ولقد كان صديقي على حق. فقد ثبت خلال الأيام الأولى لرحلتنا أن الاقتراب من كزنتوفيك مستحيل تماما إلّا إذا فرض أحدهم نفسه عليه بشكل فظّ وهذا ليس من عاداتي. وعلى الرغم من أنّ ظهوره على سطح السفينة كان خاطفا، فقد كان يتجول دائما ويداه مضمومتان

خلف ظهره في وضع متكبّر شبيه بنابليون في صورته المشهورة. وسرعان ما يُنهي جولته بشكل مفاجئ، فلا يبقى لمن يريد الحديث إليه غير خيار الركض وراءه كالشرطيّ. لم يكن يظهر مُطلقًا لا في الحانة الكبيرة ولا في غرفة المدخنين. وحسب رئيس الخدم -وكنتُ سألته عنه سِرًّا- فقد كان يمضي أغلب وقته في غرفته يتدرب على إعادة بعض المباريات على رقعة شطرنج كبيرة.

وفي غضون ثلاثة أيام، بدأت حقًّا أشعر بالضيق لمعرفة أنّ براعته في تجنب الآخرين كانت تفوق رغبتي في الاقتراب منه. أنا الّذي لم تتح لي من قبل فرصة التّعرف إلى لاعب شطرنج محترف. وكلّما سعيت جاهدا إلى سبر دماغ هذا الشخص، زاد عجزي عن تصوّره. أيّ حقيقة لذهن محصور طيلة حياة بأسرها في مساحة قدرُها أربعة وستون مربّعا أسود وأبيض؟ طبعا كنت أدرك عن طريق التجربة، التأثير العجيب الذي تمارسه هذه «اللعبة الملكية»، فمن بين كلّ الألعاب هي الوحيدة التي اخترعها الإنسان للتحرر تماما من استبداد الصدفة وعدم منح إكليل السيادة إلّا للذكاء البشريّ، أو بالأحرى لنوعٍ محدّد من الذكاء. ولكن أليس في توصيف الشطرنج باللعبة حطٌّ من قدره وارتكاب لخطإ في حقه؟ ألا يعتبر الشطرنج علما وفنا في الوقت ذاته؟ أليس شيئا يحلّق بين هذين الطرفين؟ أليس مزيجا فريدا من كلّ المتضادات؟ إنّ تاريخه ضارب في القدم ومع ذلك فهو جديد ومتجدّد على الدوام، صحيح أنّه محكوم بقانون مضبوط، ولكن لا انتصار فيه إلّا لسلطة الخيال، إنّه محصور في فضاء هندسيّ ثابت، ولكن لا نهاية في الوقت نفسه لتعدّد أشكاله وتوليفاته، متكاثرٌ باستمرار ومع ذلك عقيم، إنه فكر لا يؤدّي إلى شيء، وحساب لا يحتسب أيّ شيء، فنّ لا يخلّف أثرا، وعمارة بلا قوالب، ومع ذلك فقد أثبت أنّ الإنسان

والوجود أكثر ديمومة من كل الكتب والآثار الفنيّة، إنّه اللّعبة الوحيدة التي تشترك فيها كلّ الشعوب في كلّ الأزمنة، ولا أحد يعرف مُطلقا أيّ إله خلق الشطرنج ووهبه للبشر ليقتُل الملل ويشحذ الذهن وينعش الروح. من أين بدأ وإلى أين سينتهي؟ بإمكان كلّ طفل أن يتعلّم قواعده الأساسيّة، وفي وسع كلّ أحمق أن يختبر نفسه على رقعته، ومع ذلك فإنّ هذه اللعبة قادرةٌ في حدود مربّعاتها الضيّقة والثابتة، على خلق صنف فريد من العباقرة لا مثيل لهم على الإطلاق، أشخاص ركزوا موهبتهم فقط على الشطرنج، نوابغ مُميّزين تعمل عندهم الرؤية والصبر والمهارة معا، مثلما يحدث في الرياضيات والشعر والموسيقي، غير أنّها تعمل متّحدة ومنسجمة بطريقة تكاد تكون مختلفة.

ولو أتِيحَ لرائد من روّاد العلم الحديث في القرن الماضي من أولئك المهووسين بحبّ المعرفة والاكتشاف مثل الدكتور غال[1] أن يتعرّف عن قرب إلى بطل في لعبة الشطرنج، فلربّما دفعته الرغبة في الاكتشاف، وهو المهتمّ بعلم وظائف المخّ، إلى تشريح عقول نوابغ الشطرنج هؤلاء للتحقق من أنّه سيجد في المادة الرمادية لأجهزتهم العصبية تلافيف مُخيّة خاصّة محفورة عميقا مقارنة بالجماجم الأخرى، أو شيئا ما شبيها بعضلة أو بنتوء شطرنجي. وكم سيكون عالم فضوليّ مثله مفتونا بحالة كزنتوفيك الذي ارتبطت عبقريته الفريدة، على ما يبدو، بكسل فكريّ جذري، مثل جوهرة يتيمة يلفّها غشاء يزن مئة كيلوغرام !

يمكنني أن أتقبّل، من حيث المبدأ، أنّ لعبة فريدة وعظيمة إلى هذا الحدّ، عليها أن تخلق بالضرورة أشخاصا مميّزين ولكن من الصعب

(1) الدكتور غال: فرانز جوزيف غال (1758-1828) عالم ألماني توفي بباريس. مؤسس علم فراسة الدماغ الذي يدرس شكل الجمجمة لتحديد الملكات والغرائز الغالبة. كتابه الشهير «وظائف المخ» كان له تأثير كبير في بلزاك.

بل من المستحيل أن أتصوّر شخصا ذكيّا وحيويّا يختزل حياته بأسرها والعالم كلّه في رقعة صغيرة بين الأسود والأبيض، لا يشغله سوى تحريك اثنتين وثلاثين قطعة إلى الأمام أو إلى الخلف، وعلى أساس هذه الحركات يتوقّف عنده معنى الانتصار في معركة الوجود الكبرى.

كيف لنا أن نتخيّل شخصا يعتبر افتتاح مباراة جديدة باختيار الحصان مثلا بدل البيدق انتصارا؟ شخصا يكتب حصته الضئيلة من الخلود في ركن صغير بين صفحات كتاب عن الشطرنج؟ ولكن من وجهة نظر أخرى، يمكننا اعتباره رجلا عبقريّا طالما أنّه قادر على تركيز كلّ تفكيره خلال عشر سنوات، أو عشرين، أو ثلاثين أو أربعين سنة متتالية على هدف سخيف كحصر ملكٍ خشبي في زاوية لوحة خشبية، دون أن يصاب عقله بالجنون.

واليوم أجدني على سطح الباخرة نفسها ولأول مرة في حياتي، على بعد ستٍّ مقصورات من مقصورتي، مع ظاهرة فريدة من نوعها، عبقري استثنائي للغاية أو إن شئنا، مع مجنون غامض جدا، ومع ذلك أجد إمكانية الاقتراب منه أمرا بعيد المنال، أنا الذي غمرني ولسوء حظي، فضولٌ دائمٌ لكل ما له علاقة بالفكر.

وبدأت في ابتكار الحيل الأشد غموضا للإيقاع به. ماذا لو تظاهرتُ مثلا بإجراء حوار صحفي معه لصالح صحيفة مشهورة في محاولة لإرضاء غروره؟ أو عرضتُ عليه رحلة إلى إسكتلندا يجني منها أموالا كثيرة مراهنا بذلك على جشعه وهوسه بالمال. وفي النهاية تذكّرت أنّ الطريقة المثلى التي يتّبعها الصيادون للإمساك بديك الخلنج هي تقليد صوته في فترة التزاوج. وقلتُ في نفسي: لا شيء في الواقع أكثر نجاعة في صيد بطل الشطرنج من جعله يراك أنت نفسك تلعب أمامه الشطرنج.

ولكن عليّ أن أعترف أوّلا بأنّي لست من المحترفين في هذا المجال،

لسبب بسيط وهو أنني لم ألعب الشطرنج لغير المتعة، فأنا لا أجلس أمام رقعة الشطرنج ولا أمضي وقتا في اللعب إلّا من أجل التسلية رافضا بذلك بذل أي مجهود. أي أنّني «ألعب» الشطرنج، بالمعنى المجرد للكلمة، في حين يعتبره الآخرون، - وأقصد بذلك اللاعبين الحقيقيين– «ممارسة في غاية الجدّ» – إذا سُمح لي طبعا باستعمال هذه اللفظة – وبالإضافة إلى ذلك فنحن، في الشطرنج كما في الحب، نحتاج بالضرورة إلى شريك، و أنا لا أعرف إلى حدود هذه اللحظة، ما إذا كان هناك على سطح الباخرة هواة آخرون غيرنا، كي أتصيّدهم، وفي نهاية المطاف، توصّلت إلى فخّ بسيط جدا، نصبته في غرفة المدخنين وظللت أنتظر مثل قنّاص الطيور. فقد جلست أمام رقعة الشطرنج برفقة زوجتي التي تقل عني مهارة في اللعب. ولم تمض على لعبنا ست جولات حتى توقف أحد المسافرين بجانبنا ولحق به آخر وطلبا منا السماح لهما بمشاهدتنا ونحن نلعب. إلى أن حانت اللحظة التي تقدم فيها شخص مني ورجاني مشاركته اللعب. وذلك ما كنت أنتظره بالضبط. هو مهندس أسكتلندي، يدعى ماك كونور يقال إنّه جمع ثروته بالتنقيب عن النفط في كاليفورنيا. رجل قصير وبدين، ذو فك مربّع عريض وأسنان قويّة وبشرة متورّدة كان احمرارها الحادّ يعود دون شك إلى استهلاكه المفرط للويسكي. كتفاه العريضتان المدهشتان تهبانه مظهر رياضيّ حقيقيّ، وتعكسان إصراره في اللعب. فالسيّد ماك كونور هذا، ثريٌّ من الأثرياء الجُدد، هؤلاء الثملين بنجاحهم إلى درجة تجعل الواحد منهم يعتبر الهزيمة إهانة شخصية، حتى وإن كان الأمر متعلقا بمباراة عنيفة في الشطرنج. لقد تعوّد على فرض نفسه بشراسة ويبدو أنّ ثراءه الفاحش قد أفسد طباعه، ذلك أنّ هذه الكتلة العصاميّة من اللّحم مستبدّة إلى حدّ تصبح معه أيّ معارضة

مهما كانت بسيطة، فوضى ولربّما إهانة. لذا عندما هُزم في الجولة الأولى، أخذ يتذمَّر وشرع يشرح بنبرة سُلطويّة كيف أن هزيمته كانت بالضرورة ناجمة عن لحظة سهو، وفي الجولة الثانية حمّل مسؤولية هزيمته الضجيج المنبعث من الغرفة المجاورة. لم يحدث قط وأن تقبّل الهزيمة في جولة دون أن يسعى فورا للثأر. لن أكتم عنكم سرّا إن قلت لكم إنّني استمتعت كثيرا في البداية بهذه الغطرسة المحتدمة. ولكني سرعان ما اعتبرت ذلك حالة عرضية لن تثنيني عن هدفي الحقيقي وهو سحبُ بطل العالم إلى طاولتنا.

وفي اليوم الثالث نجحت خطتي، ولكنّها لم تنجح كليّا. فالظاهر أنّ كزنتوفيك قد لمحنا ونحن جالسان أمام رقعة الشطرنج من خلال الكوّة وهو يتجول على سطح الباخرة، وإلّا هل يُعقل أن يكون تشريفه لغرفة المدخنين اليوم مجرّد صدفة لا غير؟ يبدو أنّه لم يحتمل المشهد وهو يرى مجموعة من الجهلة يدنّسون فنّه، فلم يستطع منع نفسه من الاقتراب منا بضع خطوات وإلقاء نظرة متفحّصة على رقعة الشطرنج من مسافة بعيدة. فلمح ماك كونور وهو يهمّ بتحريك بيدق على وجه التحديد. وللأسف فإن هذه الحركة كانت كافية ليدرك كزنتوفيك أنّ من السخافة حقا أن يُهدر بطل مثله وقته الثمين في مشاهدة محاولات هواة مثلنا. وبالحركة نفسها التي يُرجع بها شخص رواية بوليسية سيئة إلى رف إحدى المكتبات دون أن يكلّف نفسه عناء تصفّحها، ابتعد كزنتوفيك عن طاولتنا وغادر حجرة المدخنين. فقلت في نفسي: «وُضعنا في الميزان فهُنّا»[1]. وشعرت بالامتعاض من تلك النظرة الباردة والمليئة بالاحتقار. ولم أستطع أن أكتم غيضي فقلت لماك كونور:

«لا يبدو أن حركتك أثارت إعجاب البطل»

---

(1) «وُضعنا في الميزان فهنّا»: عبارة اقتطفت من الكتاب المقدس سفر دانيال 5/27.

- أي بطل تعني؟

شرحت له أنّ السيد الذي مر بقربنا للتّو وهو يلقي نظرة متفحّصة على رقعة الشطرنج هو نفسه كزنتوفيك بطل العالم في الشطرنج. وأضفت قائلا: «حسنا ليس أمامنا أنا وأنت إلّا أن نتحمّل هذا العار وأن نتقبّل إهانته الجليلة دون أن نُهوِّل أمرها، مثلما يقنع الفقراء بطبخ طعامهم بالماء إذا غاب الزيت، هذا كل شيء».

لكن هذه الكلمات التي نطقتها بلامبالاة كان لها تأثير مدهش على ماك كونور. فقد ثارت ثائرته على الفور ونسي إكمال المباراة التي بدأها منذ قليل. كان الغرور يورِّم صدغيه واعترف بأنّه لا يعلم بوجود كزنتوفيك بالقرب منا وبأنّه لم يسبق له وأن لعب أمام بطل مثله إلّا مرّة واحدة فقط، رفقة أربعين لاعبا آخرين، خلال مباراة مشتركة مشوّقة كان على وشك أن ينتصر فيها. وسألني ما إذا كنت أعرف هذه الشخصية المشهورة. وبما أنّني نفيت ذلك، اقترح عليّ إمكانية لقائه ودعوته إلى الانضمام إلينا. فلم أستحسن الفكرة مدّعيا أنّ كزنتوفيك لا يرغب على حد علمي في إقامة علاقات جديدة. وبالإضافة إلى ذلك، أين المتعة في مباراة تجمع بطلا عالميا بلاعبين من الدرجة الثالثة مثلنا؟

حسنا، أعترف أنه لم يكن يجدر بي استعمال عبارة «لاعبين من الدرجة الثالثة» أمام رجل مغرور مثل ماك كونور. إذ تراجع فورا إلى الوراء وأعلن بنظرة جافّة أنّه لا يعتقد أنّ كزنتوفيك قادر على رفض دعوة رجل نبيل مثله، وأنّه سيتكفّل بهذا الأمر. ونزولا عند رغبته، قدمت له وصفا مختصرا للبطل، وانطلق على الفور في البحث عنه على ظهر المركب، مخلّفا وراءه رقعة الشطرنج، دون أيّ مبالاة. فتيقّنتُ مجدّدا كم كان من المستحيل جعل صاحب الأكتاف العريضة

هذا، يعدل عن تنفيذ ما يجول بذهنه.

انتظرته بفضول شديد. وبعد مرور عشر دقائق عاد ماك كونور وقد بدا لي متوترا بعض الشيء.

«إذن؟» سألته.

- «لقد كنتَ على حقّ، أجابني بشيء من الضيق، فهذا السيد يفتقر إلى اللّباقة، لقد عرّفته بنفسي وأخبرته من أكون لكنّه لم يبادر حتّى إلى مصافحتي. حاولت أن أشرح له كم سيكون من دواعي فخرنا واعتزازنا كلّنا، على سطح هذا المركب، لو أنه يقبل مشاركتنا مباراة في الشطرنج. لكنه لم يحرك ساكنا واعتذر على عدم قبوله العرض لأنّه مرتبط بعقد مع المتعهّد ينصُّ على ألّا يلعب طوال جولته مباراة دون أن يتقاضى أجرا. مائتان وخمسون دولارا على الأقل للمباراة الواحدة».

فانفجرت ضاحكا وقلت له:

- «لم يخطر ببالي أبدا أنّ تحريك بيادق من مربع أبيض إلى آخر أسود يمكن أن يكون مسألة مُربحةً إلى هذه الدرجة. أرجو أن تكون قد انسحبت بشكل لائق بعد أن رفض الدعوة».

لكن ماك كونور ظل محتفظا بكامل وقاره، وقال:

- «ستجرى المباراة في تمام الساعة الثالثة من ظهيرة يوم الغد، هنا، في غرفة المدخنين، أرجو ألّا نسمح له بأن يهزمنا بسهولة».

- ماذا! هل قبلت بهذه الشروط؟ صرخت ذاهلا.

- ولم لا؟ إنها مهنته. لو أصبتُ بألم في أسناني مثلا وكان يوجد بالصدفة طبيب أسنان بالجوار فلن أطلب منه أن يقلع ضرسي مجانا. كزنتوفيك كان على حق في اقتراح سعر عال جدا. ففي

كل المجالات، الأشخاص الأكفّاء حقّا هم الناجحون في أعمالهم دائما. ومن جانبي أعتقد أنه كلما كانت الصفقة واضحة كان ذلك أفضل. أنا أفضّل الدفع نقدا على أن أنتظر منّة من السيد كزنتوفيك وأضطر بعد ذلك إلى شكره. وفي النهاية، قد حدث وأن خسرت في سهرة واحدة، في ناديّ الخاص، أكثر من مائتين وخمسين دولارا دون أن أواجه بالرغم من ذلك بطلا عالميّا. ثمّ إنّ هزيمة «لاعب من الدرجة الثالثة» أمام شخص مثل كزنتوفيك، لا تُعدّ عيبا على الإطلاق.

استمتعتُ وأنا أرى عبارتي البريئة: «لاعب من الدرجة الثالثة»، وقد تمكّنت من جرح حساسية ماك كونور. ولكن بما أنّه عزم على دفع تكاليف هذه المتعة الباهظة، فما من داع لأعارض غروره السخيف، إذ بفضله ستتاح لي أخيرا فرصة لقاء الشخص الذي ما انفكّ يثير فيّ الفضول لمعرفته. سارعنا بدعوة أربعة أو خمسة من لاعبي الشطرنج إلى هذا الحدث الهام، وحجزنا كلّ الطاولات المجاورة لطاولتنا كي لا يضايقنا سيل المتفرجين خلال المباراة المرتقبة.

في اليوم التالي، وفي الوقت المتفق عليه، كان فريقنا الصغير مكتملا. وبطبيعة الحال خصّصنا لماك كونور الكرسيّ المواجه للأستاذ. وفي محاولة لكظم غيظه، كان الإسكتلندي يُشعل سيجارا تلو آخر دون أن يكفّ عن النظر إلى الساعة الحائطية. فقد جعلنا بطلنا المشهور ننتظره عشر دقائق كاملة وهو أمر لم يثر دهشتي على الإطلاق خاصة بعد كل ما رواه عنه صديقي. وأخيرا وصل البطل ودخل القاعة بثقة وقحة. ثمّ اتّجه نحو الطاولة بخطى هادئة ومتّزنة، ودون أن يعرّف بنفسه وكأنّه يقول لنا: «أنتم تعرفون من أكون، ولا يهمني أن أعرف من أنتم»، بدأ ينظّم القطع بجفاء احترافي تام، وبما أنّه تعذّر علينا لعب مباراة مشتركة لعدم توفّر رقع شطرنج كافية، فقد اقترح علينا أن نلعب كلّنا ضدّه معًا.

كان يذهب، بعد كل هجمة، للجلوس إلى طاولة أخرى في آخر القاعة كي لا يزعجنا في مشاوراتنا. وما إن ننفّذ هجمتنا، حتّى نقرع أحد الكؤوس بملعقة صغيرة، إذ لا وجود لأجراس صغيرة على الطاولات للأسف الشديد. وقد اقترح علينا عشر دقائق حدّا أقصى لكلّ حركة، وقبلنا كل اقتراحاته كتلاميذ خجولين. كانت القطع السوداء حسب القرعة، من نصيب كزنتوفيك الذي نفّذ حركته الأولى دون أن يكلّف نفسه عناء الجلوس، ثمّ اتجه فورا إلى آخر القاعة ومال على الكرسي بحركة لا مبالية متصفّحا مجلة مصوَّرة.

ليس مهما حقا سرد تفاصيل هذه المباراة. فقد انتهت طبعا كما هو

متوقع بهزيمتنا الكاملة ومنذ الجولة الرابعة والعشرين. وأين الغرابة في أن يسحق بطل عالمي نحو ستة لاعبي شطرنج متوسطي المستوى بهذه السهولة؟ ولكن الشيء الّذي ترك فينا انطباعا بغيضا هو الغرور الذي اعتمده لإشعارنا بتفوّقه علينا. فمع كلّ حركة كان يلقي على رقعة الشطرنج نظرة تبدو في ظاهرها شاردة، ويحدق فينا دون أيّ مبالاة كما لو أنّنا مجرّد قطع خشبيّة عاجزة. وهذا الموقف الوقح كان يذكّرنا لا إراديا بالطريقة التي يُلقي بها أحدُهم عظما لكلب أجرب، ثم يشيح بنظره عنه. قلت في نفسي: لو أنّه كان يتحلّى بشيء من اللباقة على الأقلّ، لاستطاع أن يثير انتباهنا للأخطاء التي كنّا نرتكبها أو أن يعمد إلى تشجيعنا بعبارة لطيفة. ومع ذلك، ما إن انتهت المباراة حتّى نطق رجل الشطرنج الآلي: «مات الملك». ولم ينبس بكلمة واحدة بعدها. بل تسمّر في مكانه، هامدًا أخرسًا، وكأنّه يسألنا: هل ترغبون في إعادة المباراة؟ فيما كنّا نحملق في الفراغ عاجزين أمام فظاظة كبيرة كهذه. كنتُ بصدد الوقوف، تعبيرا منّي على الأقل، عن رغبتي في وضع حد لهذه العربدة، عندما سمعت وأنا محبط تماما، ماك كونور وهو يقول بصوت أجش: «الثأر»!

لهجته المستفزة أثارت فزعي تقريبا. فقد كان ماك كونور في هذه اللحظة شبيها بملاكم على وشك تسديد لكمة لخصمه أكثر منه رجلا نبيلا. هل كانت هذه هي الطريقة الفظّة التي عاملنا بها كزنتوفيك أم هي ببساطة عجرفته المرضية وحساسيته المفرطة؟... على كل حال، كان ماك كونور يبدو رجلا آخر، وقد احمرّ جسمه بشدّة حتّى جذور شعره، واتسع منخاراه، كان ينضح عرقا على نحو ظاهر ويعضّ على شفتيه حتّى ارتسم على ذقنه المدودة تجعّد قطعها إلى نصفين، وقد بدا في أوج العنف. فشعرت بالحيرة وأنا ألمح في عينيه شعلة عاطفة

مجنونة لا تتملّك عادة إلّا لاعبي الرولات، عندما يراهنون للمرة السادسة أو السابعة على لون دون أن تقع الكرة عليه.

في هذه اللحظة، كنت على يقين أن نرجسيّته المسعورة ستكلّفه كل ثروته وأنّه سيلعب مرارا وتكرارا، منفردا أو ضمن مجموعة، ضد كزنتوفيك على أمل أن ينتصر ولو لمرة واحدة، وأمام مثابرة البطل يصبح ماك كونور منجما ذهبيّا يسحب منه ذلك القرويّ الجلف بضع آلاف من الدولارات قبل أن نصل إلى بيونس أيرس.

حافظ كزنتوفيك على هدوء أعصابه وأجابه بلطف: «كما تريد، فليستأثر هؤلاء السادة بالقطع السوداء إذن».

بدأت الجولة الثانية على غرار الأولى بفارق وحيد وهو أن حلقتنا كانت قد اتسعت ونُفخت فيها الحياة بعد انضمام بعض الفضوليين إلينا. كان ماك كونور يحدق في رقعة الشطرنج وكأنّه يريد أن يبعث في القطع شحنة مغناطيسية تدفع بها إلى النصر. وكنت أشعر أنه على استعداد ليبذُل ألف دولار من أجل التلذّذ بمتعة الصراخ: «مات الملك»! في وجه منافسه الفظ.

والغريب في الأمر أن عدوى حماسه المتّقد انتقلت إلينا على الرغم منا. فصرنا نتشاور قبل أيّ حركة بشغف أكبر من ذي قبل، ولا نستقر على رأي إلّا في آخر لحظة، نعطي بعدها إشارة لكزنتوفيك للعودة إلى طاولتنا. وهكذا وصلنا شيئا فشيئا إلى الجولة السابعة عشرة. وأمام ذهولنا الشديد، كانت الوضعية تتحوّل لصالحنا، فقد وجدنا أنفُسنا أمام مشهد لا يصدق، إذ نجحنا في نقل بيدق من الخط الأمامي إلى المربع قبل الأخير في الخط الخلفي. ولم يعد أمامنا إلا أن نحركه خطوة إلى الأمام لاستعادة الملكة. طبعا لم نُخدع بهذه الفرصة التي أهداها لنا الحظ وارتبنا كلّنا من ردّة فعل كزنتوفيك الذي كان لا

يؤتمن جانبه. لا شك أن مكره هو الذي دفعه لنصب شرك لنا. حاولنا عبثا اكتشاف الفخ وباءت كل مساعينا ومشاوراتنا الجديّة بالفشل.

وأخيرا، ومع نهاية الوقت المخصص للتفكير قرّرنا المجازفة. وفي اللحظة التي كان فيها ماك كونور على وشك لمس البيدق لينقله إلى المربّع الأخير، أمسك أحدهم بذراعه فجأة وهمس له بتشنّج: «لا تفعل! بحق السماء!».

وعلى غير إرادة منّا، التفتنا جميعا إلى الخلف، فرأينا رجلا في الخامسة والأربعين من العمر تقريبا، وجهه صغير وبارز التقاطيع، سبق لي وأن صادفته على ظهر المركب قبل الآن، وذُهلت لشحوبه الغريب وبشرته المائلة إلى البياض. يبدو أنّه اقترب منّا خلال هذه الدقائق الأخيرة عندما كنا غارقين في البحث عن حل للمشكلة. وحين أحسّ بنظراتنا مثبّتة عليه، أضاف بسرعة: «إذا استرجعتم الملكة الآن سيهاجمكم فورا بالفيل وستردون الهجوم بتحريك الحصان. ولكن في غضون ذلك سيهدد قلعتكم ببيدقه وحتّى وإن ضحّيتم بالحصان فستهزمون بعد تسع جولات أو عشر. إنّ وضعيّتكم تكاد تكون مطابقة مع المباراة التي خاضها أليخين ضدّ بوغولجيبوف في المسابقة الكبرى بمدينة بستيان سنة 1922».

أطلق ماك كونور القطعة من يده تحت وقع المفاجأة ونظر بدهشة، شأننا كلنا، إلى هذا الرجل الشبيه بملاك منقذ نزل من السماء، فمَن يتنبّأ سلفا بتسع جولات ستنتهي بهزيمتنا، هو دون شك لاعب محترف متميز أو ربما بطل منافس لكزنتوفيك، ذاهب معه للمشاركة في نفس المباراة. وقد كان تدخله المفاجئ بعد وصوله في لحظة حرجة جدا شبيها بالمعجزة تقريبا.

«بماذا تنصحني؟» همس له ماك كونور بانفعال شديد.

- لا تتقدم الآن. تجنّب الخصم! وقبل كلّ شيء أبعد الملك عن خط الخطر، سيُنفّذُ شريكك على الأرجح هجوما من الجانب الآخر ولكنك ستصدّه بالقلعة وسيكلّفه هذا بيدقا ويخسر بذلك تفوّقه عليكم. عندها ستصبح المواجهة بين بيدقين وإذا أحسنتم الدفاع ستنتهي الجولة بالتعادل. هذه أفضل نتيجة يمكن أن تخرجوا بها من هذه المباراة.

كانت دهشتنا تزداد أكثر فأكثر. دقّته وسرعة بديهته كانتا محيّرتين. لكأنّ هذا الرجل كان يقرأ ما سيحدث من كتاب. وكانت الفرصة المفاجئة التي أتاحها لنا للتعادل أمام بطل عالمي شبيهة بالسحر. فقرّرنا أن نبتعد لنفسح له المجال لرؤية رقعة الشطرنج بشكل أفضل، وسأله ماك كونور مرة أخرى:

- هل أنقل الملك بشكل منحرف؟

- طبعا! يجب تجنب الخصم!

أطاعه ماك كونور وقرعنا الكأس لإثارة انتباه كزنتوفيك الذي تقدّم نحونا بخطوة هادئة وقدّر الهجوم المضاد بنظرة خاطفة ثم حرّك بيدقا خطوتين على الجانب الآخر من الملك تماما كما توقّع منقذنا المجهول الذي همس لنا على الفور:

«القلعة! حرّك القلعة أربع خطوات إلى الأمام حتى يكون مضطرا في البداية لحماية بيدقه، وبهذا يكون الوضع قد عاد كما كان. هذه المرة واصل الهجوم فلن تعود في حاجة إلى التزام الدفاع».

لم نكن نفهم مقصده. لكأنّه كان يتحدّث بالصّينية. ومع ذلك، فقد نفّذ ماك كونور وهو مفتون بالكامل ما كان يأمره به دون أن يعمد إلى المزيد من التفكير، قُرع الكأس مرة أخرى مذكّرا كزنتوفيك بأن دوره قد حان. وكانت تلك هي المرة الأولى التي لم ينفذ فيها هجمته على

الفور. في البداية تأمّل رقعة الشطرنج بانتباه شديد ثمّ نفّذ الهجمة التي كان قد أنبأنا بها الغريب وهمّ بالمغادرة، ولكن قبل أن يبتعد، وقع حدث جديد غير متوقّع. رفع كزنتوفيك عينيه وتفحّصنا واحدا واحدًا في محاولة لمعرفة الشخص الذي بذل كلّ هذه المقاومة للصّمود أمامه. وابتداءً من تلك اللحظة، زاد انفعالنا وتجاوز الحد. فلئن كنّا قد فقدنا كلّ أمل في الفوز حتّى الآن، فإنّ فكرة كسر الغطرسة الباردة لكزنتوفيك كانت تُلهب دمنا. وفي الأثناء كان صديقنا الجديد قد قرّر الهجمة الثانية. صارت أصابعي ترتعش عندما أمسكت الملعقة الصغيرة استعدادا لقرع الكأس. وكان ذلك أوّل انتصار لنا عليه. في بادئ الأمر تردّد هذا البطل الذي كان يلعب دائما وهو واقف، تردّد كثيرا قبل أن يقرر الجلوس. ثمّ هوى، على مضض، بجسده على الكرسي. لا يهم، هكذا سيكفّ عن إظهار تفوّقه علينا جسديا. فقد أجبرناه الآن على النزول إلى مستوانا حتّى وإن كان ذلك في حدود المكان. ها هو يفكّر عميقا، منكبّا على رقعة الشطرنج، إلى درجة أنّنا لم نكن تقريبا نلمح عينيه تحت الأجفان الحزينة. وكان فمه يُفتح لا إراديّا لشدّة المجهود الذي يبذله في التفكير وهو ما أضفى على ملامح وجهه المستدير شحوبا جعله يبدو كرجل أبله. وفي ظرف بضع دقائق نفّذ هجمته ثمّ وقف. فهمس صديقنا فورا:

«ممتاز! لقد نجا من الفخّ ولكن لا تنخدعوا بذلك! أرغموه على الاختيار، يجب أن تفعلوا ذلك حتّى تضمنوا التعادل وعندها لن ينقذه أي شيء».

أطاعه ماك كونور. في الهجمات المقبلة، أكبّ الخصمان على لعب جولات وقفنا أمامها مشدوهين، إذ لم نكن منذ وقت طويل، إلّا شخوصا ثانوية لا قيمة لها. وبعد ست هجمات أو سبع ظل كزنتوفيك

غارقا في التفكير لوقت طويل ثم أعلن انتهاء المباراة بالتعادل.

ساد الصمت للحظة في غرفة المدخنين وتناهى إلى سمعنا فجأة صوتُ الأمواج وموسيقى الجاز المنبعثة من الراديو، كان لكل خطوة على ظهر المركب وقعٌ مختلف، واستشعرنا حتى صفير الريح الخفيف وهو يعبر فجوات النوافذ. حبسنا أنفاسنا على إيقاع هذا الحدث السريع، وصرنا مذعورين حقّا من هذه المغامرة الخارقة. كيف استطاع هذا الغريب أن يجعل بطلا عالميّا يخرج من مباراة شبه خاسر؟

مال ماك كونور فجأة إلى الخلف وأطلق صرخة فرح مدوّية. أمّا أنا فقد ظللتُ أنظر إلى كزنتوفيك. خُيّل إليّ أنّ شحوبه زاد قليلا خلال الجولات الأخيرة. لكنّه عرف كيف يتمالك نفسه. وظلّ محافظا على صرامته وطبعه اللّامبالي، ثمّ دفع قطع الشطرنج بيده وتساءل بصوت محايد:

«هل يرغب هؤلاء السادة في لعب مباراة ثالثة؟».

كان يطرح السؤال بطريقة موضوعية خالصة مثلما يتحدّث كبار رجال الأعمال المتمرّسين عن صفقة. ولكنّه لم يكن يتوجه به إلى ماك كونور، بل صوّب نظرته الثاقبة وهو ينطق بهذه الكلمات باتجاه منقذنا مباشرة. فمن المؤكد أن كزنتوفيك كان قد عرف خصمه الحقيقي في آخر المباراة مثلما يعرف الحصان الفارس الأفضل ويميّزه من غيره بمجرّد جلوسه على صهوته. فتبعنا نظره بحركة لا إراديّة. وقد تملّكنا التوتّر قليلا، ووجّهنا أنظارنا نحن أيضا صوب الغريب. ولكنّ ماك كونور صرخ بكبرياء طافح بنشوة النصر، دون أن يترك له وقتا للتفكير أو للإجابة: «طبعا! ولكنك ستواجهه وحدك! أنت وحدك ضد كزنتوفيك».

عندها حدث ما لم نكن نتوقّعه. فقد انتفض الغريب بعد أن كان

ذاهلا لوقت طويل أمام رقعة الشطرنج الخالية، وعندما شعر بكلّ العيون مصوّبة إليه، وسمع أحدهم يخاطبه بحماس خاصّ، علت وجهه مسحة من القلق، وتمتم بارتباك:

«كلّا، كلّا، أيّها السادة! هذا مستحيل... لا قدرة لي على مواجهته... فأنا لم أشاهد رقعة شطرنج منذ عشرين بل خمس وعشرين سنة... لقد اشتركت في لعبتكم بناءً على رغبتكم، والآن أدرك كم كان سلوكي سخيفا... أرجوكم اغفروا لي تطفلي، أنا... لا أريد إزعاجكم أكثر». وقبل أن نصحو من تأثير المفاجأة كان قد غادر المكان.

«ولكن هذا مستحيل! حتمًا مستحيل! زمجر ماك كونور وهو يضرب بقبضته على الطاولة. من المستحيل أن يكون هذا الرجل قد توقّف عن لعب الشطرنج لمدّة خمس وعشرين سنة! لقد كان يخطّط لكل حركة ولكلّ هجوم مضاد قبل خمس حركات أو ست! ليس في وسع أيّ إنسان أن يباغت الخصم ويتكهّن بردّة فعله صدفة. لا بدّ أنّ هناك سرّا ما، هذا قطعا مستحيل، أليس كذلك؟». واستدار عمدًا نحو كزنتوفيك وسأله. لكن بطل العالم ظلّ محافظا على هدوء أعصابه، ثمّ قال:

«لا أستطيع الحكم على ذلك. من المؤكد أنّ السيّد لعب بطريقة محيّرة نوعا ما وليس بشكل عشوائي لهذا مكّنته قصدا من فرصة أخرى». ووقف وهو يتحدّث، مُضيفا بلهجة لا مبالية ومحايدة:

«إذا كان أحد هؤلاء السادة يرغب في لعب مباراة أخرى غدا فأنا تحت تصرّفه ابتداءً من الساعة الثالثة بعد الظهر».

لم نستطع كتم ابتسامة عبرت شفاهنا. فقد كنّا نعلم جميعا أنّ كزنتوفيك لم يمنح فرصة لمنقذنا الغريب إكرامًا له، وأنّ هذه الملاحظة لم تكن إلّا ذريعة ساذجة لإخفاء هزيمته. وهو ما زاد من تأجيج رغبتنا الجامحة في طمس كبريائه المتأصّل فيه.

وبعد أن كنّا مجرّد مسافرين وديعين وغير مبالين، استبدّت بنا فجأة شهوة النصر حين جال في أذهاننا أنّ هذه السفينة في قلب المحيط، قد تشهد مصرع كزنتوفيك. سيكون ذلك سبقا تتناقله على الفور كلّ إذاعات العالم!

وقد زاد في حماسنا هذا اللغز المحيّر الذي يحيط بمنقذنا المفاجئ في اللحظة الحرجة، وهذا التناقض الواضح بين تواضعه المبالغ فيه، وكبرياء البطل المحترف البالغ حدّ البجاحة.

من كان هذا الغريب؟ هل أنّ الحظّ أسعفنا باكتشاف نابغة في الشطرنج؟ أم أنه لاعب محترف ومشهور بالفعل، أخفى عنّا اسمه لسبب مجهول؟ كنا نتخبّط في محاولة لإيجاد إجابة عن هذه الأسئلة، وكانت أشدّ الفرضيات جرأة تتهافت بمجرّد السعي إلى التوفيق بين خجل الغريب واعترافه المفاجئ بضعفه من جهة، وبراعته في الشطرنج الواضحة للعيان من جهة ثانية. لكننا أجمعنا على نقطة واحدة: لابدّ من حمل هذا الغريب على مواجهة كزنتوفيك مهما كان الثمن، وقد تعهّد ماك كونور بتحمّل مصاريف المباراة كاملة. عندئذ علمنا من الخادم أن الغريب كان نمساويا. وبما أنّنا من البلد نفسه، فقد كُلّفت بمهمة إقناعه.

ولم يطل بحثي عنه، إذ عثرت عليه بسرعة على ظهر السفينة في المكان الذي التجأ إليه فور مغادرتنا. وجدته يقرأ مسترخيا على إحدى الأرائك. فتوقّفت وتأمّلته قليلا قبل أن أقترب منه. كان يسند رأسه الناتئة عظامها إلى الوسائد في وضعية من يشعر بالسأم، وأذهلني مجددا شحوب وجهه على الرغم من أنّه لم يتجاوز كثيرا مرحلة الشباب. كان شعره أبيض بالكامل وانتابني شعور غريب بأن هذا الرجل شاخ قبل الأوان. وحين اقتربت منه، قام بكل لباقة وقدّم نفسه

إليّ. فوجدت لقبه مألوفا على الفور، فقد كان لقبا لعائلة نمساوية عريقة وذات مكانة كبيرة. وتذكّرت أنّ صديقا مقرّبا جدا لشوبرت يحمل اللقب نفسه، بالإضافة إلى أحد أطبّاء الإمبراطور العجوز. عندما أخبرت الدكتور «ب»[1] برغبتنا في قبوله تحدي كزنتوفيك بدا لي متضايقا جدا. واكتشفت أنه كان يجهل تماما أنه كان يلعب أمام بطل، بل أشهر أبطال العصر. بدا أنّ هذا الأمر قد ترك فيه أثرا بالغا لأنه سألني أكثر من مرّة وبإلحاح شديد ما إذا كنتُ واثقا من كلامي، وما إذا كان خصمه فعلا لاعبا محترفا ومشهورا إلى هذا الحد. وقد سهّلت هذه الحيرة مهمّتي كثيرا. ومع ذلك، ونظرا إلى حساسيّته الشديدة رأيت أنه من غير اللائق إخباره بأنّ ماك كونور سيتحمّل مصاريف هزيمة مفترضة. وبعد وقت طويل من التردد أعلن السيد «ب» أنه جاهز للعب مباراة جديدة ولكنّه طلب مني بوضوح أن لا يعلّق هؤلاء السادة آمالا عظيمة على مواهبه.

ثم أضاف بابتسامة عميقة: «إذ أنني أجهل في الواقع ما إذا كنت قادرا على لعب مباراة في الشطرنج حسب القواعد المتفق عليها. صدقني لم يكن تواضعا مني عندما أكدت أنني لم ألمس رقعة شطرنج منذ زمن بعيد، منذ كنت تلميذا، أي قبل ما يزيد عن عشرين سنة. وحتى في ذلك الوقت لم أكن غير لاعب مبتدئ».

كان يقول هذا الكلام بعفوية شديدة إلى درجة أنني كنت عاجزا عن الشك للحظة واحدة في صدقه. ومع ذلك لم أمنع نفسي من إظهار حيرتي أمام قدرته على تذكّر كل الخطط التي طبّقها جميع لاعبي

---

(1) في البلدان الجرمانية تستعمل كلمة دكتور كتسمية لكل شخص نال شهادة دكتوراه من الجامعة وليس بالضرورة شهادة في الطب، على خلاف كلمة دكتور بالفرنسية لذلك وقع اعتماد تسمية السيد «ب» لاحقا.

الشطرنج المحترفين الذين أتى على ذكرهم. وقلت له: الثابت أنّك كنت مهموما بالشطرنج، على الأقل من الناحية النظرية. وحين سمع هذه الكلمات استعاد مرة أخرى ابتسامته العجيبة الحالمة.

«نعم، لقد كنت مهووسا بالشطرنج. وحده الله يعلم إلى أي حدّ أصبتَ الحقيقة في حديثك، لكن الأمر حدث في ظروف خاصة، بل استثنائية. إنها قصّة معقّدة جدا أهم ما فيها أنها تشهد على الفترة الساحرة والعظيمة التي مررنا بها. إذا كان صبرك يسمح بنصف ساعة رويتها لك...».

كنا وحدنا، فدعاني إلى الجلوس على الأريكة المجاورة بإشارة من يده. وقبلت دعوته عن طيب خاطر. نزع السيد «ب» نظارته ووضعها جانبا ثم بدأ الحديث:

«لقد تفضّلت بالقول إنك من فيينا وإنك تذكر لقب عائلتي. ولكن لا أظنّك سمعتَ عن مكتب المحاماة الذي كنت أديره مع والدي في البداية ثم تكفّلت به وحدي بعد ذلك. لأننا لم نكن نوكّل بقضايا كبيرة يتردد صداها في الصحف ولم يكن مطمحنا مضاعفة زبائننا. وفي الحقيقة، لم نكن نمارس المحاماة بالمعنى الدقيق للكلمة. بل كنا نكتفي بتقديم استشارات قانونية وإدارة أملاك الأديرة الكبرى التي كان لوالدي، النائب السابق عن حزب القُسُس[1]، علاقات وطيدة بها. وبالإضافة إلى ذلك أستطيع أن أخبرك دون أيّ تحفّظ، بما أنّ النظام الملكي بات من الماضي، بأنّ بعض أفراد العائلة الملكية قد عهدوا إلينا في ذلك الوقت بإدارة ثرواتهم. وقد توارثت عائلتي علاقتها بالبلاط الملكي ورجال الدين لجيلين كاملين. فأحد أعمامي كان طبيب الإمبراطور

(1) وردت تلميحا للحزب المسيحي الاشتراكي الذي وصل إلى الحكم سنة 1920 خلفا لحزب الاشتراكيين الديمقراطيين.

والآخر كان رئيس دير سايتنستيتين[1]. وكان علينا أن نعمل في هدوء وبسرية تامة كي نكسب ثقتهم ونحافظ على هذه العلاقات التي وُهبت لنا بالوراثة ولم تكن تقتضي لنستمر أكثر من التحفّظ التام والصدق المشهود، وهما ميزتان كان والدي المتوفى يتحلى بهما وقد نجح بفضلهما في أن يحفظ لزبائنه قسما لا يستهان به من ثرواتهم رغم التضخم المالي و«الثورة»[2]. ولكن عندما وصل هتلر بعد ذلك إلى السلطة في ألمانيا وأخذ ينهب ثروات الكنائس والأديرة تولّى مكتبنا تقديم الاستشارات وعقدنا صفقات كثيرة من وراء الحدود حماية لمتلكات موكّلينا من المصادرة، ولا سيّما أموالهم المنقولة على الأقل.

كنت أنا وأبي في ذلك الوقت، على علم بكلّ مستجدّات المفاوضات السياسية السرية بين روما والبيت الملكي، وقد كانت مغيّبة تماما عن الشعب بطبيعة الحال. ولكن شهرتنا بالأمانة وكتمان السر، وحرصنا على تجنّب إظهار كل ما يمكن أن يكشف صلتنا بالأوساط الموالية للنظام، إلى درجة جعلتنا ننزع اللافتة التي كانت معلّقة على باب المكتب، جعلتنا بالتأكيد بمنأى عن الشبهات والتحرّيات المزعجة. وفي الواقع لا توجد في النمسا كلّها طوال هذه السنوات جهة واحدة راودها الشك في أن المبعوثين السريين للبيت الإمبراطوري كانوا يأتون يوميا إلى مكتبنا المتواضع الكائن في الطابق الرابع في إحدى عمارات فيينا، لتسلّم مراسلاتهم المهمّة.

وقبل أن تجهّز القوات النازية جيوشها لتجتاح بها العالم، شرعت في كل البلدان المجاورة في تشكيل جيش لا يقلّ عن جيشها خطورة

---

(1) دير بينيديكتي أُسّس في القرن الثاني عشر قبل الميلاد في النمسا السفلى.

(2) إشارة إلى الفترة المضطربة التي سبقت تأسيس الجمهورية النمساوية التي وقع الإعلان عنها في 12 نوفمبر 1918 و تواصلت بعدها.

أو تدريبا: إنه فيلق المهمشين والمتروكين والساخطين والمستائين. وقد نشروا خلاياهم السرية في كل مكتب، في كلّ مؤسسة، وفي كلّ الإدارات وصولا إلى مكتب المستشار الخاص دولفوس، ثم إلى شوشنيغ[1] من بعده.

كان جواسيسهم ووشاتهم مبثوثين في كل مكان. وللأسف لم أعلم بأنهم عيّنوا جاسوسا في مكتبنا الصغير أيضًا إلا بعد فوات الأوان. كان مستخدما صغيرا بائسا، ألحقناه بالعمل بتوصية من أحد القسيسين ليبدو مكتبنا مكتب محاماة بحق. ولم نكن نعهد إليه إلاّ بالأعمال البسيطة وعديمة الفائدة كالردّ على المكالمات الهاتفية وترتيب الوثائق، ولا نسمح له البتّة وتحت أي ظرف كان، بفتح المراسلات.

كنت أتكفل بكتابة كل الرسائل المهمة على الآلة الراقنة، دون أن أترك نسخة منها على المكتب وأحمل إلى المنزل كل المراسلات المهمة، أمّا الاستشارات فلا أقدّمها إلا بشكل سرّي في مصلّى الدير أو في مكتب عمي، وبفضل هذه الاحتياطات لم يكن أمام الجاسوس في المكتب أيّ شيء له قيمة تُذكر كي يلاحظه. ولكن شاءت صدفة سيئة أن يشعر المستخدم الطموح بأنّه موضع شك وبأنّ كل الأعمال الخطيرة كانت تمر وراء ظهره. ربّما تحدّث في غيابي مبعوث طائش عن «جلالته» عوض أن يلقّبه بـ«البارون بيرن» كما هو متفق عليه. ولربّما فتح الوغد إحدى الرسائل متجاوزا بذلك التعليمات... على كل حال بدأت السلطات في ميونخ وبرلين تراقبنا عن كثب، قبل أن

---

(1) انغلبرت دولفوس (1892/1934) سياسي نمساوي كان ينتمي للحزب الاشتراكي المسيحي ثم تحوّل إلى الحزب النمساوي الفاشي أصبح مستشارا بين 1932 و1934، كان مناهضا للضم العسكري واغتاله النازيون يوم 25 جويلية من سنة 1934 خلفه كورت شوشنيك (1897/1977) كمستشار بين 1934 و1938 إلى حدود الضم العسكري في 12 مارس 1938 واستقلال تحت حكم هتلر الذي اقتحم فيينا في 14 مارس تحديدا.

ينتابني مجرّد الشك في انكشاف سرنا، ولم أتذكر إلا بعد فترة طويلة من اعتقالي كيف تحولت لامبالاته فجأة إلى حماس أظهره في الأشهر الأخيرة لعمله معنا والإلحاح الذي أبداه في مناسبات عدّة وهو يطلب مني أن أمكّنه من إيداع المراسلات الخاصة بي في صندوق البريد. لا أنكر أني انخدعت به، ولكن كم من دبلوماسي وكم من ضابط في أعلى المراتب، راح ضحية انخداعه بهذا الصنف اللئيم. حصلت لاحقا على دليل ملموس على أن الغيستابو[1] كانت تلاحقني منذ وقت طويل، ففي المساء الذي أعلن فيه شوشينغ استقالته، وقبل يوم من اجتياح هتلر لفيينا، تم اعتقالي من قبل الشرطة العسكرية السرية، ولحسن الحظ أنني وجدت الوقت الكافي لإحراق الوثائق الأكثر أهمية حالما سمعت خطاب الوداع لشوشينغ[2]، وقبل أن يقتحم الأزلام الباب بدقيقة واحدة، أرسلت لعمي كل الأوراق الضرورية التي تثبت وجود أموال خارج حدود النمسا بعضها للدير الذي ننتمي إليه، وبعضها لاثنين من أسرة الإمبراطور، أرسلتها له في سلة غسيل حملتها إليه مربّيتي المخلصة في آخر لحظة.

قطع السيد «ب» حكايته ليشعل سيجارا، فاستطعت أن ألمح على ضوء اللهب المتأجج، تشنّجا في طرف فمه، سبق ولفت انتباهي من قبل، لم يكن غير التواء خاطف تكاد العين لا تراه، ولكنه كان يضفي على وجهه حيرة غريبة.

«أنت تتصور دون شك أنني سأحدثك الآن عن أحد معسكرات الاعتقال التي اقتادوا إليها كل أولئك الذين ظلّوا قيد الوفاء لوطننا الأم، النمسا. وتنتظر أن أصف لك كل الإهانات والعذابات التي

(1) البوليس السري الألماني.

(2) أعلن شوشنيغ استقالته عبر بلاغ إذاعي في 11 مارس 1938 على الساعة السابعة والنصف مساء.

تعرّضت لها. ولكن لم يحصل لي أيّ شيء من هذا القبيل. كنت مصنّفا ضمن فئة أخرى. لم أوضع مع هؤلاء الأشقياء الذين كانوا ينتقمون منهم بامتهان أجسادهم وأرواحهم. بل مع الفريق الآخر قليل الأفراد، الفريق الذي كان النازيون يطمعون في انتزاع المال منه والمعلومات المهمة. ولم يكن شخصي الضعيف بالطبع يمثّل في حدّ ذاته أية أهمية للغيستابو، ولكن الأكيد أنهم علموا أننا كنا موظّفين لدى أعدائهم الأكثر ضراوة، ومؤتَمنين على أسرارهم، وكانوا يتمنّون أن ينتزعوا منّي معلومات تدين الأديرة أو العائلة الملكية وكلّ النمساويين المخلصين للنظام الملكي. كانوا يعتقدون -وهذا لم يكن اعتباطيا في الواقع- أن جزءا كبيرا من الثروات التي وصلت إلى أيدينا ما يزال مخبّأ إلى الآن في مكان يستعصي على جشعهم الوصول إليه. لذلك حاولوا، ومنذ اليوم الأول لاعتقالي، أن يحصلوا منّي على هذه الأسرار بالالتجاء إلى طرق مضمونة النتائج. وهذا ما جعلهم يمتنعون عن إرسال أشخاص مثلي، يرغبون في سلبهم أموالهم والمعلومات المهمة التي تعجّ بها صدروهم، إلى معسكرات الاعتقال، إذ كانوا يعدّون لهم مصيرا خاصا جدا. ولعلّك تذكر أنهم لم يسجنوا رئيس القضاة ولا البارون روتشيلد، لأنهم كانوا يتصوّرون أنّ عائلتيهما قد تمنحانهم جزءًا من ثرواتها، بل تكرّموا عليهم وأسكنوهم في أحد الفنادق ووفروا لكلّ واحد منهم غرفة خاصّة. كان ذلك في فندق الميتروبول[1]، معقل الغيستابو، وهذا الشخص المتواضع الماثل أمامك نال شرف الإقامة في

(1) في هذا المبنى الفخم الذي أسس في 1873 في الدائرة الاولى في فيينا والذي استولى عليه رينهارد هايدريش منذ مارس 1938 حتى يجعله مقرا للغيستابو. بعد أن أحرقته قنابل الحلفاء في مارس 1945 وهُدّم بالكامل سنة 1945 لم يحمل أيّ فندق في فيينا هذا الاسم منذ ذلك الحين وبداية من 1950 وضعت مكانه لافتة تحمل أسماء ضحايا الغارة وبالقرب منه ضمّ مركز التوثيق حول الثورة النمساوية منذ 2011 معرضا لمعتقلي فندق ميتروبول.

ذلك الفندق أيضا».

غرفة خاصة في فندق ! قد يبدو الأمر للوهلة الأولى عملا في غاية الإنسانية، أليس صحيحا؟ ومع ذلك صدقني إن قلت لك إنّ امتناعهم عن الزج بنا في معسكرات باردة تعجّ بعشرات وعشرات من السجناء، وإسكاننا بدلا من ذلك في غرف منفصلة ودافئة كما لو كنا شخصيات مهمة، كان طريقة في التعذيب تفتقد للإنسانية، كانوا يريدون تعذيبنا بطريقة أشد تهذيبا، لأن الضغط الذي مارسوه علينا من أجل استنطاقنا وأخذ المعلومات المنشودة، أشدّ مكرا من ضربات العصا والتعذيب الجسدي: لقد كانوا يعذبوننا بالعزلة، عزلة خالصة لا يمكن أن تخطر على بال أحد. لم نتعرّض لأيّ تعذيب جسدي... بل أسلمونا ببساطة إلى فراغ مطلق، ومن البديهي أن لا شيء في العالم يعذّب النفس البشرية أكثر من الفراغ. كانوا يحبسون كلّ واحد منّا في فراغ تام، في غرفة مقفلة بإحكام ومنفصلة تماما عن العالم الخارجي. وكنا ندرك تماما أنّهم عوض أن يمارسوا علينا تعذيبا خارجيا بالضرب أو بتعريض أجسادنا للبرد، يلجؤون إلى أسلوب داخلي في التعذيب ليجبرونا على الاعتراف. في البداية لم تكن الغرفةُ الممنوحةُ لي مُريحةً في شيء. كانت تستأثر بباب وسرير وكرسي وحوض غسيل ونافذة مسيجة، لكن الباب يظل مقفلا على امتداد الليل والنهار. وكان محرّما عليّ أن أحصل على كتاب أو صحيفة أو ورقة أو قلم. ولم تكن النافذة تفتح على غير جدارٍ عالٍ. فلم أجد حولي إلا الفراغ، وكنت غارقا فيه كليّا. لقد سلبوني ساعتي كي لا أشعر بمرور الوقت وقلمي لمنعي من الكتابة وسكّيني كي لا أقطع شراييني، منعوني حتى من مجرد الاستمتاع بتدخين سيجارة. ولم أكن ألتقي بأي إنسان إلاّ الحارس، وكانت له أوامر بعدم الحديث إليّ ولا الإجابة عن أيّ

سؤال أطرحه عليه. لم أكن أسمع أي صوت بشري آناء الليل وأطراف النهار. لا شيء نلقّمه حواسنا، لا العينين ولا الأذنين. لا شيء غير البقاء وحيدين ويائسين أمام ذواتنا وأجسادنا وخمسة أشياء خرساء أو أربعة: الطاولة، السرير، النافذة، حوض الغسيل. كنا نعيش مثل الغواص داخل غوّاصته الزجاجيّة الغارقة في محيط هذا الصمت المظلم، ولكن كغواص يشعر بأنّ الحبل الذي يربطه بالعالم قد انقطع تماما، ولا شيء يمكن أن ينتشله من هذه الأعماق الصامتة.

لا شيء نقوم به، لا شيء ننظر إليه، ولا شيء نسمعه. لا شيء يخيّم من حولنا إلا الفراغ الباعث على الدّوار، لا مكان يحدّه ولا زمان. كنا نذرع الغرفة ذهابا وإيابا تشغلنا الأفكار وتحتلّ أذهاننا دون توقف، متّبعة نفس النسق. إنّها في حاجة إلى نقطة ارتكاز، وإن بدت لنا مجرّدة، وإلاّ ستبدأ هذه الأفكار في الدوران حول نفسها في حلقة مجنونة. فهي بدورها لا تحتمل الفراغ. كنا ننتظر حدوث شيء ما من الصباح إلى المساء، ولكن لم يكن يحدث أيّ شيء. وكلّما طال الانتظار ازداد دوران الأفكار في رؤوسنا حتّى تؤلمنا أصداغنا كالعادة دون أن يحدث أيّ شيء. لقد كنا نغرق رويدا رويدا في عزلة لا قرار لها.

دام هذا الوضع خمسة عشر يوما، عشت خلالها خارج الزمان وخارج العالم. لو أن حربا اندلعت لما علمت عنها شيئا لأن العالم كان يتقلّص في نظري إلى طاولة وباب وسرير وكرسي وحوض غسيل ونافذة، وأربعة جدران كنت أحدّق في ورقها المرسوم. كل خط من زخارفه المتعرّجة لكأنما نقش بين خبايا الذاكرة بإزميل لشدّة ما تأمّلته. وأخيرا بدأ التحقيق. كنا نُدعى إلى ذلك بشكل مباغت، دون أن نعرف ما إذا كان الوقت ليلا أم نهارا. كانوا يقودوننا في ممرات تفضي بنا إلى مكان مجهول يطول فيه انتظارنا، لنجد أنفسنا فجأة

أمام طاولة يجلس حولها بعض الأشخاص مرتدين بذلات رسمية، وقد وضعت عليها حزمة من الأوراق وملف كنّا نجهل محتواه، وكانت الأسئلة تبدأ على الفور، الأسئلة المباشرة، وتلك الأسئلة الماكرة التي تخفي أسئلة أخرى، وتستدرجك للوقوع في الفخ. وبينما كنا نجيب عنها، كانت أصابع غريبة وعدوانية تتصفح الأوراق التي نجهل محتواها، وهذه الأصابع الغريبة والعدوانية ذاتها كانت ترقن محضرا لا نعرف ما الذي خُطّ فيه بالضبط. ولكن أكثر شيء كان يثير رعبي في هذا التحقيق هو عجزي عن معرفة ما كانت تعلمه الغيستابو عن مسار أعمال مكتبي وما يرغبون في انتزاعه مني. ومثلما سبق وأن قلت لك، فقد أرسلت إلى عمي في آخر لحظة كل الوثائق المشبوهة عن طريق مربيتي، ولكن هل وصلت إليه يا ترى؟ وإلى أي حدّ كان مستخدمي قد خدعني؟ كم عدد الرسائل التي وصلت إلى أيديهم؟ وما الذي انتزعوه من ذلك القسّ المسكين وهم يستجوبونه بمهارة في أحد الأديرة التي كنا نمثّلها؟

وأمطروني بوابل من الأسئلة: ما هي السندات التي اشتريتها لصالح هذا الدير؟ أيّ بنك كنت أتعامل معه؟ هل أعرف السيد فلان؟ هل كنت أتلقى رسائل من سويسرا أو من ستينوكرزيل؟[1] وبما أنني كنت عاجزا عن تكوين فكرة صحيحة عمّا يعرفونه بالضبط، فقد كانت كل واحدة من إجاباتي مفتوحة على رعب حقيقيّ. فلو أنني اعترفت بشيء يجهلونه هم، فلربما تسببت في إرسال أحدهم إلى الموت. أما إذا التزمت الصمت، فسوف ألحق الضرر بنفسي.

ومع ذلك لم يكن التحقيق أفضع شيء على الإطلاق. فلقد كانت

---

(1) بلدة بلجيكية تابعة للقطاع الفلندري في الشمال الشرقي لبروكسال. كان زفايغ يعرفها عندما كانت له علاقات مع إيميل فيرهارن.

العودة إلى الفراغ فور انتهاء التحقيق أكثر فظاعة بكثير، العودة إلى هذه الغرفة نفسها، أمام الطاولة نفسها، على السرير نفسه، قبالة حوض الغسيل نفسه، وورق الجدران نفسه. ولا أكاد أخلو إلى أفكاري حتى أبدأ في استرجاع التحقيق والتفكير في الإجابات الأشد فطنة وما كان عليّ قوله، وما ينبغي أن أقوله في المرة القادمة لإبعاد الشك الذي قد أكون أيقظته بإلقاء ملاحظة طائشة. كنت أغوص وأغوص إلى الأعماق، وأنا أمتحن كل شهادة أدليتُ بها، وأفحصها وأدقّق في كلّ كلمة قلتها أمام قاضي التحقيق، أسترجع كلّ سؤال طُرح عليّ وكلّ إجابة زوّدتهم بها، وأحاول أن اتخيّل المعلومات التي سجّلوها في محاضرهم. ومع ذلك فقد كنت على يقين تام من عجزي عن معرفة كل هذا وإعادة تشكيله. وما إن ينتهي التحقيق وأجلس وحيدا في هذه الحجرة الفارغة، حتى تستأنف هذه الأفكار دورانها في رأسي وتتألف من جديد وتظلّ تطاردني حتى داخل المنام.

هكذا كانت الأفكار التي تنتابني بعد كل جلسة تحقيق جديدة أمام الغيستابو، وهكذا تواصل قسوة تعذيبها لي، بهذه الأسئلة والشكوك والآلام، وكان هذا أشدّ قسوة من التحقيق نفسه، فجلسات التحقيق لا تدوم أكثر من ساعة واحدة، أما هذه الأفكار، بالمقابل، فإنّها لم تكن تتوقف مُطلقًا بسبب العذاب المخاتل المنجرّ عن هذه العزلة. لا شيء حولي غير هذه الطاولة وهذه الخزانة وهذا السرير وورق الجدران هذا، لا وجود لأي وسيلة للتسلية، لا كتاب ولا صحيفة. لا وجه غير وجهي ولا قلم لكتابة أي شيء كان، لا وجود لعود ثقاب واحد أستمتع باحتراقه، لا شيء، إنه العدم في أعلى تجليّاته.

أجل، أؤكّد أنّ من صمّم هذه الحجرة لم يكن سوى شيطان عبقريّ، قاتل أرواح. فلو كنتُ في معسكرات الاعتقال لربّما أجبرت

على نقل الحجارة إلى أن تدمى يداي وتتجمّد رجلاي في حذائي. كنتُ سأحشر مع خمسة وعشرين رجلا آخرين يلفّنا البرد وتخنقنا العفونة. ولكن على الأقل سأرى وجوها، وسأحدّق في أيّ شيء كان، في حقل ما على سبيل المثال أو في عربة نقل يدويّة أو في شجرة، عوضا عن هذه الغرفة الثابتة، هذه الغرفة التي لا تشبه في ثباتها المرعب غير نفسها فقط. هنا لا شيء بإمكانه أن يصرف عني أفكاري وخيالاتي المجنونة واستنتاجاتي المرضيّة، وكان هذا ما يريدونه بالضبط: عليّ أن أجترّ أفكاري حتى تخنقني وأضطر إلى لفظها، بمعنى آخر حتى أعترف لهم بها، أعترف بكل ما كانوا يريدونه، أعترف بكلّ ما قام به أصدقائي وبكل المعلومات المنشودة. وشيئا فشيئا، صرت أشعر بأنّ أعصابي ستنهار قريبا تحت ضغط هذا الفراغ الشنيع. ولكنّني أتماسك وأنا على تمام الوعي بهذا الخطر، كنت أتماسك بكل ما أوتيت من قوة حتى أجد لي مخرجا أو أخلقه. ولكي أشغل نفسي صرت أتلو كل ما كنت حفظته في يوم من الأيام عن ظهر قلب أو أعيد تشكيله من جديد: نشيدنا الوطني الرسمي، أناشيد الطفولة، أبيات هوميروس التي تعلمتها في المعهد، فقرات من القانون المدني. ثم حاولت أن أقوم بعمليات حسابية بجمع أعداد ثم قسمتها، ولكن ذاكرتي كانت عاجزة عن حفظها في هذا الفراغ. لم أكن قادرا على التركيز في شيء، كانت الفكرة نفسها تبرز فجأة أمامي من العدم: ما الذي يعرفونه عني يا ترى؟ ماذا قلت لهم بالأمس؟ ماذا علي أن أقول في المرة القادمة؟

في الواقع دامت هذه الوضعية العصيّة على الوصف أربعة أشهر. حسنا... أربعة أشهر هي عبارة تُكتب بنفس السرعة التي تنطق بها. فنحن لا نحتاج إلى أكثر من ربع ثانية لنطق هاتين الكلمتين. ولكن لا أحد بإمكانه وصف حياة تمضي خارج المكان والزمان، لا أحد بإمكانه

تقييمها ولا تمثّلها، وليس في وسعنا أن نصف لأي أحد كم كان هذا الفراغ القاسي ينخرنا من الداخل ويحطّمنا. من يستطيع وصف هذا العدم السرمدي الذي يلفّنا؟ هذه العزلة الأبديّة التي تحصرنا بين الطاولة والسرير وحوض الغسيل وورق الجدران؟ هذا الصمت الدائم؟ وهذا الحارس الأزليّ الذي كان يضع الطعام أمام سجينه دون أن يرمقه بنظرة؟ هذه الأفكار الثابتة إذ تدور حولي وتعبث بي في هذا الفراغ حتى تذهب بعقلي؟ إشارات بسيطة جعلتني أدرك أنني قاربت الجنون. في البداية نجحت في المحافظة على ذهني صافيا خلال جلسات التحقيق وكنت أدلي بشهادات هادئة ومدروسة وأفرز في ذهني ما كان يجب عليّ أن أقوله ولا أقوله. أمّا الآن، فإنّني لا أقوى على التلفّظ بأبسط الجمل دون أن أتلعثم لأنني كنت أنطقها وأنا أحدّق مثل المنوّم في ريشة كاتب المحكمة وهو يجرّها على الورقة كما لو أنني أرغب في الركض للّحاق بأقوالي. كنت أشعر بأنّ قواي تضعف شيئا فشيئا، وبأنّ اللحظة التي سأعترف فيها بكل شيء للنجاة بعقلي، أو للتخلص من قبضة هذا الفراغ، قد اقتربت. سأخون اثني عشر رجلا وأفضح أسرارهم عساني أنعم بلحظة استرخاء عابرة لا غير.

وفي إحدى الأمسيات أوشكت على الانهيار. وما إن دخل الحارس جالبًا لي الطعام حتى صرخت في وجهه بصوت مختنق: «خذني للتحقيق ! سأقول كل شيء ! يجب أن أدلي بشهادتي ! سأعترف بمكان الوثائق وبالمكان الذي أودعت فيه المال. سأعترف بكل شيء، سأعترف بكل شيء حتما.» ولحسن حظّي لم يكن الحارس يسمعني أو لعلّه لم يكن يرغب في سماعي.

في هذه المحنة القاسية، حدث شيء غير متوقع كان فيه خلاصي ولو بشكل مؤقّت. كان ذلك في يوم غائم ماطر حزين من موفى شهر

جويلية. وإذ أذكر هذه التفاصيل بدقة فلأن المطر وقتها كان ينقر زجاج نوافذ الممرات التي كانوا يقتادونني عبرها إلى التحقيق. اضطررت للانتظار في غرفة قاضي التحقيق، وقد كان زمن الانتظار هو الآخر جزءا من أسلوبهم في التعذيب. في البدء يشرعون في شدّ أعصابنا بمباغتتنا في منتصف الليل، وما إن نجهز لإجراء المقابلة ونهيّأ أذهاننا ونشحذ عزيمتنا استعدادا للتحقيق، حتى يلقوا بنا طُعما سائغا للانتظار، هكذا ببساطة ودون سبب. يتركوننا في الانتظار لمدة ساعة أو ساعتين أو ثلاث قبل موعد التحقيق من أجل إرهاق أجسادنا وكسر أرواحنا. وقد عمدوا إلى تركي شخصيا أنتظر لوقت طويل، فظللت واقفا في الغرفة لمدة ساعتين كاملتين حتى تخدّرت ساقاي، لأن الجلوس كان ممنوعا بالطبع، في ذلك الخميس الموافق للسابع والعشرين من شهر جويلية، وإذ أتذكر هذا التاريخ، فذلك ببساطة، لأن في الغرفة روزنامة معلّقة على الحائط، لست أدري كيف أشرح لك الأمر، ولكن جوعي لقراءة شيء ما دفعني إلى التحديق طويلا في هذا الرقم وهذه الكلمة: 27 جويلية[1]، حتى كدت ألتهمهما بعيني وأطبعهما في ذاكرتي إن صح التعبير. ثم عدت إلى الانتظار الطويل والتحديق في الباب وأنا أتساءل متى سيفتح أخيرا وأعيد التفكير في ما يمكن أن يطرحه عليّ المحقّقون من أسئلة هذه المرة، وكلّي يقين بأنها لن تكون الأسئلة ذاتها التي جهّزت لها إجابات مسبقة. ورغم القلق الذي كان يثيره فيّ هذا الانتظار، رغم الإرهاق الذي يسبّبه لي، فقد كان مجرّد وجودي في غرفة أخرى مختلفة عن غرفتي يشعرني

---

(1) يبدو أن هذا التاريخ موافق لتاريخ انتهاء صلوحية جواز السفر النمساوي لستيفان زفايغ. فبرفضه الجنسية الألمانية أصبح مشرّدا إلى حين حصوله على جواز السفر البريطاني بصعوبة سنة 1940.

بالارتياح، كانت أكثر اتساعا، تضيئها نافذتان عوضا عن واحدة، دون سرير ولا حوض غسيل، ولا يوجد فيها شقّ تحت النافذة كالذي رأيته ملايين المرات في غرفتي. بابها مطليّ بلون مغاير لباب غرفتي والكرسي المسند إلى الحائط مختلف أيضا. على اليسار، كانت هناك خزانة ملآى بالملفات وحجرة ثياب بعلاّقات تدلّى منها ثلاثة معاطف عسكرية مبلّلة. لا شكّ أنها معاطف جلاديّ. وهكذا أتيح لي أن أرى أشياء جديدة... أخيرا وجدت أشياء مختلفة ألقمها لعينيّ الجائعتين وقد كانتا تحدّقان في أبسط التفاصيل بنهم شديد. لاحظت مثلا قطرة ماء تقاوم عالقة بإحدى الياقات المبلّلة، ومهما بدا لك هذا الأمر سخيفا فقد تملّكني شغف جنونيّ بمراقبتها لأعرف ما إذا كانت هذه القطرة ستسيل أخيرا أم أنها ستقاوم الجاذبية وستتشبث أكثر وقت ممكن بالياقة.

أجل لقد ظللت أحدّق لاهثا إلى هذه القطرة لعدة دقائق كما لو أنّ حياتي متوقّفة عليها. وحين سقطت أخيرا، بدأت في عدّ أزرار المعاطف: ثمانية أزرار في المعطف الأول والثاني وعشرة في المعطف الثالث. ثم انتقلت إلى المقارنة بين ظهور أكمامها. كانت عيناي الجائعتان تتفحصان هذه التفاصيل السخيفة والتافهة وتلتقطانها بنهم أعجز عن وصفه. وفجأة استقرّ بصري على شيء أثار حيرتي. لقد اكتشفت أن الجيب الجانبيّ لأحد المعاطف كان منتفخا نوعا ما، اقتربت وقد خيّل إليّ أنه يشبه الشكل المستطيل لكتاب. أيُعقل أن يكون هذا الشيء كتابا بالفعل؟ ! وبدأت ركبتاي ترتعشان: أجل إنه كتاب ! لقد مضت عليّ أربعة أشهر لم ألمس خلالها كتابا واحدا بيديّ. ومجرّد التفكير في تأمّل سلسلة من الكلمات وعدد من الأسطر والصفحات والأوراق كان كفيلا بإبهاري. كتاب يتيح لي الاطّلاع على أفكار رجل

آخر، أفكار مختلفة وجديدة قد تشغلني عن هواجسي. أيّ اكتشاف مذهل ومريح هذا!

تسمّرت نظراتي المبهورة على هذا الجيب المنتفخ في شكل كتاب، كانت عيناي تقذفان أشعّة حارقة صوب هذا الموضع التافه كما لو أنهما تودّان اختراقه. وفي النهاية، عجزت عن تمالك نفسي، وعلى غير إرادة مني اقتربت أكثر. فمجرد التفكير في تحسّس كتاب، حتى ولو تمّ عبر قطعة قماش، كان يجعل أصابعي تحترق حتّى أظفاري. ودون وعي مني تقريبا، كنت أحاذي الجدار مقتربا شيئا فشيئا من المعطف. ولحسن الحظّ لم يكن الحارس منتبها لسلوكي الغريب إطلاقا. لعلّه كان يجد من الطبيعي أن يرغب شخص في الاستناد قليلا إلى الجدار بعد أن ظلّ واقفا لساعتين كاملتين. وصلت أخيرا إلى المعطف ووضعت يديّ خلف ظهري لأتمكّن من لمسه خلسة. تحسّست القماش وشعرت في الواقع بوجود شيء مستطيل، كان ليّنا ويحدث طقطقة خفيفة: إنه كتاب ! أجل إنّه كتاب !

وفجأة عبرت هذه الفكرة الجنونية ذهني مثل البرق: حاول سرقته ! قد تنجح في ذلك وهكذا يمكنك أن تخبّئه في زنزانتك وتغرق في القراءة، أخيرا ستقرأ من جديد ! وما كادت هذه الفكرة تخطر ببالي، حتى سرى تأثيرها في جسدي مثل سمّ قاتل: بدأت أشعر بطنين في أذنيّ، وتسارع نبض قلبي ولم أعد أستطيع التحكّم في يديّ المتجمّدتين. وحالما هدأت قليلا التصقت بالمعطف بمكر وأنا ما أزال أحدّق إلى الحارس، وشيئا فشيئا أخرجت الكتاب برفق، ثم أمسكته بيديّ بكلّ خفّة وحذر، فوجدته كتابا صغير الحجم. عندها شعرت بالفزع مما اقترفت يداي. ولكن لم يعد باستطاعتي أن أعود إلى الوراء. أين أضعه الآن؟ بقيت محتفظا بيدي خلف ظهري، حتى

وضعت الكتاب في جيب البنطال، تحت الحزام، وجعلته ينزلق شيئا فشيئا إلى حدود فخذي لأتمكّن وأنا أمشي بعد ذلك من تثبيته بيديّ كما يفعل جنديّ في وضع استعداد. والآن لم يبق لي إلا اختبار حيلتي: ابتعدت عن حجرة الملابس، خطوت خطوة، ثم خطوتين، فثلاث خطوات. هذا رائع، لقد نجح الأمر ! سأتمكن من إبقاء الكتاب في مكانه وأنا أمشي، فقط عليّ ترك ذراعي ملتصقا بجسدي تماما عند موضع الحزام.

وحان موعد التحقيق الذي استنزف منّي مجهودا أكبر من كلّ المرات الماضية، لأنّ كلّ تركيزي كان منصبّا على الكتاب وعلى الطريقة التي كنت أمسكه بها، أكثر منه على أقوالي. ولحسن الحظ كانت فترة التحقيق قصيرة هذا اليوم، فحملت الكتاب إلى غرفتي دون أن يلحقه أي ضرر. لا أريد أن أزعجك بالحديث عن التفاصيل، فقد حدث وأن انزلق بشكل خطير في بنطالي بينما كنت أسير في الرواق. وكان عليّ أن أفتعل نوبة سعال عنيفة كي أنحني وأدفعه خلسة تحت الحزام. ولكم كانت تلك اللّحظة عصيّة على النسيان، لحظةَ اختليتُ بهذه الرفقة الثمينة في جحيمي الصغير!

قد تتصور دون شك أنني سحبت الكتاب فورا لأتأمله وأقرأه، كلا ! على الإطلاق ! لقد أردت في البداية أن أتذوّق الفرحة الكاملة التي كان يمنحني إياها وجوده معي. فأخّرت عمدا لحظة تصفّحي له من أجل متعة الحلم المثيرة وأنا أتساءل أيّ نوع من الكتب أريده أن يكون: تمنيت أن تكون حروفه صغيرة جدا وأن يتضمن العديد من الكلمات والعديد العديد من الصفحات الرقيقة حتى تطول فترة قراءتي له. بعد ذلك تمنيت أن يكون كتابا صعبا يتطلب مني مجهودا فكريا كبيرا، خاليا من كل قبح وبساطة، شيئا ما يمكن تعلّمه وحفظه عن ظهر قلب،

ومن الأفضل أن يكون كتاب شعر، أو من الأفضل... أي حلم جريء هذا ! آه لو يكون كتابا لغوته أو هوميروس. وفي النهاية لم أتمكّن من كبت رغبتي وفضولي لرؤيته أكثر من ذلك.

استلقيت على السرير كي لا يتمكّن الحارس من مباغتتي عندما يفتح الباب، سحبت الكتاب من تحت الحزام وأنا أرتعش. وما كدت ألقي عليه نظرة حتى صرعتني الحسرة وخيبة الأمل، وتملّكني غضب شديد، فهذا الكتاب الذي انتشلته معرّضا نفسي إلى أخطار كثيرة، هذا الكتاب الذي أيقظ فيّ آمالا ملتهبة لم يكن إلا كُتيبا يشرح أحكام لعبة الشطرنج ويتضمّن قائمة لمائة وخمسين مباراة خاضها لاعبون محترفون.

ولو لم أكن مسجونا في غرفة مقفلة لرميتُ به، وأنا في قمة غضبي، من النافذة، فما الذي يمكنني فعله، بحقّ السماء، بكتاب غامض كهذا؟ صحيح أنّني حاولت مثل أغلب أصدقائي حين كنت تلميذا بالمعهد، أن أتسلّى بلعب الشطرنج لقتل الملل. ولكن بمَ سينفعني الآن هذا الكتاب عن نظرية الشطرنج؟ وليس في وسعنا لعبِ الشطرنج دون شريك، بل ودون رقعة شطرنج وأحجار.

على كل حال تصفّحت الكتاب بتذمّر على أمل أن أكتشف فيه شيئا ما يستحق القراءة مثل التمهيد أو التوجيهات، لكنه لم يكن يتضمّن إلا رسوما بيانية جافة وإشارات بدت لي منذ الوهلة الأولى مبهمة: أ2، أ3، س ف1، د3، الخ. كل هذا كان بالنسبة إليّ رموزا في الجبر على غاية من التعقيد ولا أملك لها أيّ حلّ. ولكنني أدركت شيئا فشيئا أن الحروف أ- ب- ج كانت تشير إلى الخطوط العموديّة، في حين كانت الأرقام من 1 إلى 8 تشير إلى الخطوط الأفقية، وباتحادهما

يتّضح موضع كل نقطة في الرقعة خلال المباراة. وفجأة تحوّلت هذه الرسوم الخطيّة الخالصة إلى لغة خاصة. وفكّرت بيني وبين نفسي أنه قد يكون بإمكاني صنع شيء ما شبيه برقعة الشطرنج في زنزانتي، أستطيع أن ألعب عليه هذه المباريات. وسرعان ما انتبهت إلى لحاف السرير وكأنّ إشارة إلهية وجّهتني نحوه، إذ بدا لي مناسبًا جدًّا، ذلك أنّ قماشه مرسوم لحسن الحظّ على هيئة مربّعات، فإذا ثنيته بطريقة محدّدة يصبح له شكل رقعة شطرنج بأربعة وستين مربعا. في البداية أخفيت الكتاب تحت الحشية بعد أن مزقت صفحته الأولى. وبعد ذلك اتخذت من فتات الخبز الذي أدّخره جانبا قطع شطرنج شكّلتها بطريقة سخيفة ومنقوصة طبعا، على هيئة أحجار الشطرنج: ملك وملكة وفيل الخ. وبعد جهود مريرة استطعت أخيرا محاولة إعادة تشكيل المواقع المفصّلة في الكتيّب على مربّعات اللحاف، ولكن عندما حاولت أن أكمل المباراة فشلت فشلا ذريعا، لأنّني كنت أخلط بين هذه الأشكال المضحكة التي ابتدعتها من فتات الخبز، على الرغم من أنّني لوّنت نصفها بتمريغها في الغبار حتى اسودّ لونها كي يسهل علي التمييز بينها. وقد ظلّ الأمر مختلطا عليّ تماما طيلة الأيام الأولى. ومع ذلك لم أكفّ عن إعادة هذه المباراة منذ البداية خمس مرات ثم عشرا حتى بلغت العشرين مرة، وما الضير في ذلك؟ فأيّ مخلوق على سطح الأرض يمتلك وقت فراغ كالذي أملكه أنا، أسير الفراغ؟ ومن ذا الذي يفوقني لهفة وصبرا؟

وفي ظرف ستة أيام أصبحت قادرا على لعب هذه المباراة دون ارتكاب أي خطأ وبعد ثمانية أيام استغنيت تماما على فتاة الخبز لأتمثّل في مخيّلتي الأوضاع المرسومة في الكتاب. وبعد ثمانية أيام أخرى استطعت الاستغناء عن اللحاف هو الآخر. ولئن بدت لي الإشارات أ1،

أ2، ج7، و ج8، غامضة منذ الوهلة الأولى، فقد تحوّلت في ذهني بعد ذلك إلى مواضع حقيقية وواضحة بشكل آليّ. وكانت عمليّة التحويل هذه تجري كأروع ما يكون، وصرت أتمثّل رقعة الشطرنج في مخيلتي بكامل أحجارها.

كانت النماذج كافية لأرى كلّ وضعية على حدة مثل موسيقي محترف يكفي أن يلقي نظرة خاطفة على النوتات كي يصغي إلى الألحان ويشعر بالانسجام الذي تخلقه. وبعد مرور خمسة عشر يوما إضافية أصبحت ألعب على نحو أعمى، كما يقال، كل مباريات الشطرنج المعروضة في الكتيّب. وعندها فقط أدركت أيّ نعيم أبديّ غرقت فيه بفضل هذه السرقة الجريئة. إذ أصبح لدي فجأة شيء ما أشغل به نفسي، أيّا كان توصيفه بالنسبة إليك، عقيما أو غامضا إذا أردت، ولكنه كافٍ، على أيّ حال، لهدم إمبراطورية الفراغ الجاثمة على روحي.

كانت هذه المباريات المائة والخمسون سلاحا عجيبا ضدّ رتابة المكان والزمان الخانقة. ولكي أظلّ محتفظا بسحر هذا الشغل الجديد قسمت يومي ابتداء من تلك اللحظة تحديدا، إلى مبارتين صباحيتين ومبارتين بعد الظهر، وفي المساء أقوم بمراجعة سريعة للمباريات الأربع. وهكذا كنت أشغل وقتي وقد كان قبل الآن يتمدد كالهُلام، بلا شكل.

وبذلك لم يعد لي وقت فراغ، وعوض أن أقضي يومي متكاسلا ورخوا كالهلام، صرتُ مشغولا باللعب دون أدنى شعور بالإرهاق لأن لعبة الشطرنج تملك هذه الخاصية اللافتة بعدم إرهاق الذهن بل تزيده مرونة وحيوية، فنحن عندما نلعبها نركز كل طاقتنا الفكرية على حلقة ضيقة جدا، مهما كانت المباريات عسيرة. في البداية

كنت أتبع توجيهات الكتاب بحذافيرها، وذلك بإعادة لعب المباريات الشهيرة، وشيئا فشيئا بدأتُ أخرج من التقليد إلى الإبداع وأنا في ذروة الاستمتاع بذلك. تعلمت أكثر الحيل دقّة ومكرا في الهجوم والدفاع على حدّ سواء، وأتقنت فنّ توقّع الهجمة والتخطيط لها والرد عليها، وأصبحت قادرا بعد ذلك على معرفة أسلوب كل لاعب من اللاعبين المشهورين تماما مثلما أعرف شاعرا من بضعة أبيات مقتطفة من أحد مؤلفاته. وما كان في البداية طريقة لقتل الوقت أصبح الآن متعة حقيقية، وطالعتني وجوه اللاعبين الحقيقيين مثل أليخين ولاسكار وبوغولجيفوف وتراكوفر لتؤنسني في عزلتي مثل رفاق أعزاء.

أصبحت زنزانتي الصامتة آهلة بمرح لا حدود له. وأعاد تناغم هذه التمارين لذهني صفاءه وانتعاشه، بل اكتسب بفضل هذه اللعبة الفكرية الصارمة منطقا جديدا في منتهى الدقّة أفدت منه كثيرا خلال التحقيقات. فقد طوّرت، دون وعي مني، أسلوبي الدفاعي ضدّ التهديدات المتعدّدة والخدع الماكرة على رقعة الشطرنج، وهو ما جعلني أنجح في إخفاء نقاط ضعفي خلال جلسات التحقيق حتى بدا لي أن أزلام الغيستابو صاروا يتعاملون معي بشيء من الاحترام. ربما كانوا يتساءلون على انفراد وهم يرون الآخرين ينهارون أمامهم واحدا تلو الآخر، من أيّ الينابيع السرية كنت أستمد هذه الصرامة؟

دامت هذه الفترة السعيدة حوالي ثلاثة أشهر كنت أعيد فيها لعب مباريات الكتيّب المائة والخمسين بشكل دوريّ. بعد ذلك، ودون أن أشعر بنهايتها، وجدت نفسي قد عدت فجأة إلى نقطة الصفر، وجها لوجه مع الفراغ. لأن المباراة التي تتكرّر للمرة العشرين أو الثلاثين تفقد دائما سحر البدايات، وتستنفد كلّ قوّتها بالنسبة إليّ. فأيّ معنى لإعادة هذه المباريات باستمرار حين تعرف مسبقا كلّ حركة عن ظهر

قلب؟ لقد أصبح مجرى المباراة يرتسم أمامي آليّا بمجرّد أن أفتتح اللعبة. ولم تعد هناك أيّ مفاجآت ولا إثارة ولا صعاب. ولكي أشغل نفسي، لكي أبذل المجهود نفسه مجدّدا، ولكي أستعيد هذه المتعة التي لم أكن قادرا على الاستغناء عنها، كان يلزمني كتيّب ثان يتضمّن أمثلة لمباريات جديدة. وبما أنه كان من الصعب تحقيق ذلك، فلم يبق لي إلا منفذ واحد للخروج من هذا المأزق الغريب وهو أن أختلق مباريات أخرى أحاول أن ألعبها بمفردي وبالأحرى ضدّ نفسي.

حسنًا أنا أجهل إلى أيّ مدى فكّرتَ في الحالة الذهنية التي يمكن أن تثيرها فيك ملكة الألعاب هذه. ولكن ثانية واحدة كانت كافية لتدرك أن الشطرنج لعبة فكرية خالصة والحظ فيها مستبعد تماما. ومن السخف أن تلعب ضد نفسك، فسحر لعبة الشطرنج يكمن في أن يتواجه عقلان مختلفان، أن تجهل القطع السوداء خطة الهجوم التي ستتعمدها القطع البيضاء وتنزع دون توقف إلى كشفها ومن ثم إحباطها. أما إذا كان الشخص نفسه يمثّل كلا الفريقين فإن الوضعية ستصبح متناقضة. كيف للعقل ذاته أن يعلم شيئا ويجهله في آن واحد؟ كيف يمكن له وهو يلعب بالقطع البيضاء بكامل إرادته أن ينسى تماما ما غايته ومخططاته من تحريك إحدى القطع السوداء قبل دقيقة واحدة؟ إن مثل هذه الازدواجية في التفكير تفرض ازدواجية كاملة في الوعي، وتقتضي القدرة على عزل بعض وظائف العقل عن بعض بإرادة تامة كما لو أن الأمر عبارة عن آلة ميكانيكية. إن الرغبة في لعب الشطرنج ضد نفسك أشدّ تناقضا من الرغبة في القفز فوق ظلك.

باختصار، لقد أسلمتُ نفسي شهورا كاملة، وأنا في قمة اليأس، إلى هذا المشروع العبثي والمستحيل. ولكن لم يكن لديّ خيار آخر، باستثناء

هذا الضَّلال، لأهرب من الجنون الخالص وعدم الغرق في ركود فكري تام. كنت منزعجا بسبب وضعيّتي المفزعة وأنا أحاول على الأقلّ الانقسام بين «أنا أبيض» و«أنا أسود» كي لا أنسحق تحت وطأة هذا الفراغ الرهيب، الفراغ الذي كان يطوقني ويحيط بي من كلّ الجهات.

مال السيد «ب» على كرسيّه الطويل وأغمض عينيه للحظة كما لو أنه كان يطرد بجهد طويل ذكرى مزعجة. وارتسم ذلك التشنّج العصبيّ مجدّدا على زاوية فمه اليسرى وكأنّه عاجز عن التحّكم فيه، ثم استقام وتابع حديثه.

«هذا كل شيء، أرجو أن أكون قد تمكّنت من شرح الأمر لك بوضوح. ولكن للأسف أنا لا أعرف ما إذا كنت قادرا على سرد بقية الحكاية بالوضوح ذاته. لأن هوايتي الجديدة كانت تتطلب ضغطا عصبيا يجعلني غير قادر أبدا على التحكم في نفسي. كنت قد أخبرتك سابقا أن الرغبة في لعب الشطرنج ضدّ نفسك كانت في اعتقادي فكرة عبثية. ولكن كان بالإمكان التخلّص من هذه العبثية لو كنت أجلس فعلا أمام رقعة شطرنج حقيقية بقطع حقيقيّة تساعدني على تنشيط ذهني والانتقال من طرف الطاولة إلى الطرف الآخر ومعاينة الوضعية تارة من منظور القطع السوداء وطورا من منظور القطع البيضاء. ولكنّي كنتُ مكرها على لعب مباريات ضد نفسي، وبعبارة أخرى إذا أردتَ ضدّ «أنا» متخيّلة، كان عليّ أن أتمثّلني ذهنيا وأحفظ المواضع المتواترة للأحجار والفرص القادمة لكل منافس، وأعي جيّدا كم يبدو هذا الأمر غامضا، فقد كان عليّ أن أتخيّل دائما لكل قطعة من القطع البيضاء والسوداء التي أمثّلها وضعيتين أو ثلاثا، لا بل ستّا، بل ثماني وضعيّات، وأحيانا اثنتي عشرة وضعية مختلفة. وكان ذهني ينقسم باللعب في هذا الفضاء العبثي والخيالي في الآن

نفسه -واعذرني إذا أنا أقحمتك في هذياني- إلى ذهن أبيض وآخر أسود كي أستطيع التخطيط مسبقا لأربع حركات أو خمس، تفرضها الخطة في الجانبين. ولم يكن هذا الانفصام الذهني داخل ذاتي أخطرَ ما في هذه التجربة العويصة، بل إنّ الخطير حقّا هو أن كل شيء كان يجري في الخيال. وهكذا أوشكت على فقدان توازني والانزلاق إلى هاوية العبث من جديد.

في السابق، عندما كنت أعيد لعب مباريات مشهورة في الكتيّب، لم يكن ذلك يتعدّى في حدّ ذاته، نقلا لمثال جاهز سلفا. وهذا ليس أشدّ صعوبة من حفظ قصائد أو فقرات من القانون المدني عن ظهر قلب. كان نشاطا محدودا ومنظّما، وليس «تمرينا ذهنيا» استثنائيا. مباراتان صباحيتان إضافة إلى مباراتين مسائيتين. هذا كلّ ما في الأمر، إنّه أشبه بواجب مألوف أنجزه دون توظيف عاطفي. وبالإضافة إلى ذلك، عندما أخطئ أو أتردد خلال مباراة ما، كنت أستنجد بالكتاب.

وإذا كنتُ أجد في هذا العمل خلاصي أو راحتي فذلك ببساطة لأنني كنتُ ألعب مباراة الآخرين عوضا عنهم، ولم أكن أخوضها أنا شخصيا. لذلك لم يكن يعنيني أن تنتصر القطع السوداء أو البيضاء فتلك قضية أليخين أو بوغولجيبوف اللذين كانا يتنافسان من اجل انتزاع لقب البطولة. ولذلك أيضا لم تتعدّ المتعة التي أثارتها فيّ هذه المباريات الجميلة بفضل ذكائي وحساسيتي. المتعة نفسها التي يشعر بها المتفرج العارف بمغامرات اللعبة وجماليتها. ولكن منذ اللحظة التي حاولت فيها اللعب ضدّ نفسي وجدتني أتحدّى ذاتي بلا وعي مني. فالقطع السوداء التي أمثلها منافسة شرسة للقطع البيضاء التي أمثلها أيضا. ولقد أصبحت كل واحدة منها نهمة ومتعطشة للفوز. في

داخلي كان هذان المنافسان، في داخلي ينتصران، وفي داخلي يفتاضان حين يرتكب أحدهما خطأ أو يفتقر للمهارة.

كل هذا كان يبدو عبثيا وسيكون كذلك في الواقع لو أنّ الأمر يتعلّق بشخص عادي يعيش ظروفا عادية. أي حكاية خيالية شبيهة بانفصام مفتعل! أي ازدواج في الشخصية! ولكن لا تنس أنني كنت قد انتُزِعت بعنف من محيطي المألوف، وأنني كنت مسجونا بريئا تعذّبه الوحدة منذ أشهر عديدة وتسحقه بقبضتها الناعمة، رجلا عاجزا عن إفراغ غضبه العارم في أيّ شيء مهما كان.

وبما أنني لم أكن أجد أمامي غير هذه اللعبة الحمقاء فقد صببت فيها كلّ ما يعتمل في صدري من غيظ ورغبة في الانتقام. شيء ما في داخلي يريد أن يكون على حق بأيّ ثمن ولم يكن أمامي خصم ممكن غير هذا الأنا الآخر الداخلي، لهذا السبب كان أسلوب اللّعب هذا يغرقني في حماس أشبه بالهوس.

في البداية كنت قادرا على اللعب بكل هدوء وتفكّر، وكنتُ أستريح بين جولة وأخرى. ولكن شيئا فشيئا، زادت عصبيتي وصار الانتظار غير محتمل. إذ ما أكاد ألعب بالأحجار البيضاء حتى تنتصب الأحجار السوداء أمامي مرتعشة. وما تكاد تنتهي جولة حتى يبدأ جزء مني في تحدي الآخر لأنني كنت أحمل في داخلي على الدوام لاعبا مهزوما يتوعّد بالانتقام.

ليس باستطاعتي، ولو تخمينا، تحديد عدد الجولات التي لعبتها على هذا النحو في زنزانتي خلال الأشهر الأخيرة، بدافع من هذه الرغبة الشرهة. قد تكون ألف جولة أو أكثر. كنت مأخوذا بها وعاجزا عن الخلاص منها. لا أرى من الصباح إلى المساء غير بيادق وقلاع وملوك وفيلة. وكان رأسي يضجّ بأحرف: أ، ب، ج، وعبارات مثل «مات

الملك» و«كش الملك». وكان كياني وكلّ أحاسيسي مركّزين على رقعة الشطرنج. تحولت متعة اللعب إلى رغبة قوية في اللعب، وتحولت هذه الرغبة إلى ضرورة، ثم إلى هوس وجنون محمومين يجتاحان صباحاتي ولياليّ. لم أعد أفكر إلا في الشطرنج ومشاكل الشطرنج ونقل الأحجار من مربّع إلى آخر وغالبا ما كنت أستيقظ وجبيني متعرّق. وبعد ذلك اكتشفت أنني كنت أواصل اللعب حتى في نومي. وعندما كانت تتراءى لي وجوه بشرية في الحلم، كنت أراها تتحرك دائما مثل الفيل أو القلعة أو تقفز كالحصان إلى الأمام وإلى الخلف.

وعندما أدعى إلى التحقيق صرتُ أفقد التركيز تماما وأصبحت أشعر بأنني أتكلّم بشكل غامض نوعا ما في إفاداتي الأخيرة، لأنّ المحقّقين كانوا يتبادلون أحيانا نظرات مفعمة بالدهشة والذهول. وفي الواقع، لم أعد أفكّر إذ يطرحون عليّ الأسئلة أو يتشاورون فيما بينهم إلا في اللحظة التي يعيدونني فيها إلى زنزانتي والرغبة الحارقة تجتاحني كي أتابع لعبتي، لعبتي الجنونية، جولة بعد أخرى... وكان مجرّد الانقطاع يعذّبني أيّما تعذيب. أتعذّب حين يدخل الحارس ليكنس الغرفة، وأتعذّب حين يهدر دقيقتين من وقتي لجلب طعامي الذي أتركه إلى المساء دون أن ألمسه. لا شيء ينتابني سوى لهفتي المحمومة للعب. ولم أكن أشعر بشيء سوى العطش الفظيع الناجم دون شك عن الحمّى التي كانت تجتاحني بسبب هذه اللعبة بجولاتها السرمدية وما تثيره من أفكار يضجّ بها رأسي. كنت أفرغ قارورة الماء في فمي دفعة واحدة، ثم أطلب من الحارس أن يجلب لي قارورة أخرى ولا تمر ثانية واحدة حتى يجفّ فمي من جديد.

في النهاية بلغ انفعالي ذروته وأنا ألعب، إذ لم أكن أقوم بأيّ شيء من الصباح إلى المساء غير اللعب، حتى غدوت عاجزا عن البقاء

هادئا لحظة واحدة. كنت أذرع الغرفة جيئة وذهابا مفكّرا في مختلف الجولات، بنسق متسارع وخطوة تزداد عجلة كلّما اقتربت الجولة من نهايتها... وشيئا فشيئا صارت الرغبة الجامحة في الانتصار على نفسي ضربا من الجنون، وأصبحتُ أرتجف من اللهفة لأنّ أحد الخصمين اللذين كنتُهما معا كان بطيئا على الدوام من وجهة نظر الآخر. كان كلّ منهما يدفع الآخر إلى الإسراع. وعندما لا يستجيب أحدهما بسرعة نزولا تحت مشيئته -مهما بدا لك هذا سخيفا- كنت أبدأ أنا أيضا في مهاجمة نفسي بعنف قائلا: «أسرع! أسرع! هيا هيا!». واليوم أدرك تمام الإدراك أنّ هذه الحالة الذهنيّة لم تكن سوى مرض مُزمن ولا أجد لها توصيفا آخر إلاّ «التسمّم بلعبة الشطرنج»، هذه العبارة التي لم تكن واردة في معجم الطبّ من قبل.

وفي النهاية تسبب هذا الهوس بتسرّب السم من عقلي إلى جسدي كله. فضعف جسمي وأصبح نومي مضطربا ومتقلّبا. وعندما استيقظ في الصباح أجد أجفاني ثقيلة ولا أتمكّن من فتح عينيّ إلا بجهد جهيد. أحيانا أشعر بضعف شديد إلى درجة أنّ يديّ ترتعشان عندما أمسك بكأس ولا أستطيع حملهما إلى فمي إلاّ بمشقّة بالغة. ولكن ما إن كنت أبدأ المباراة حتى تتملكني قوة وحشية. كنت أذرع الحجرة جيئة وذهابا... وغالبا ما أسمع صوتي كأنه منبعث عبر ضباب محمرّ وهو يصرخ في وجهي بنبرة حادة وقبيحة: لقد هُزمت! مات الملك!».

لا أستطيع أن أصف لك كيف تحولت هذه الوضعية المفزعة إلى أزمة. كل ما أعرفه هو أنني استيقظت في صباح أحد الأيام على غير عادتي. كما لو أن جسدي كان قد تخلص مني أخيرا واستلقى مزهوا برخائه. إرهاق عظيم لم أعهده منذ عدة أشهر كان يثقل أجفاني باعثا فيّ إحساسا كبيرا بالسعادة إلى درجة أنني لم أكن قادرا على

فتح عينيّ على الفور. وبقيت هكذا لدقائق عديدة. مستمتعا بفتوري وبدفء سريري وكسلي اللذيذ.

وفجأة خُيّل إليّ أنني أسمع أصواتا من خلفي، أصواتا بشرية دافئة وحيّة كانت تقول كلمات هادئة. ولا يمكن أن تتخيّل مدى سعادتي، أنا الذي لم يكن قد سمع منذ عام تقريبا إلا أصوات المحقّقين القاسية والقبيحة: «أنت تحلم ! قلت في نفسي... أنت تحلم ! لا تفتح عينيك ! تابع الحلم عوض أن تتأمّل هذه الغرفة اللعينة والكرسي وحوض الغسيل والطاولة ورسم ورق الجدران. أنت تحلم ! تابع حلمك !».

ولكن الفضول استولى عليّ. ففتحت عينيّ بحذر ورفق شديدين. ويا للمعجزة! لقد وجدت نفسي في غرفة أخرى، أشدّ اتساعا من زنزانة الفندق، كان الضوء يدخل فيها بحُريّة عبر نافذة دون قضبان، وكنتُ أرى خلفها أشجارا، أشجارا خضراء تلاطف الريح أغصانها عوضا عن ذاك الجدار العالي المفزع. كانت حيطان الغرفة بيضاء ولامعة وكان السقف أيضًا أبيضَ مقببا. أجل لقد كنت مستلقيا حقا على سرير آخر، سرير غريب عنّي. كلا لم يكن هذا حلما. فهناك أصوات بشرية تتحدث خلفي بهمس.

ودون وعي مني شعرت بالاضطراب لهول المفاجأة لأنني سمعت وقع خطى تقترب على الفور. كانت امرأة قادمة نحوي مختالة، وهي ترتدي غطاء رأس أبيض. إنها ممرضة. ارتعشت فرحا: منذ سنة كاملة لم ألمح خيال امرأة. ودون شك أخذت أتأمّل هذا الخيال الرشيق بعينين منتشيتين وحارقتين، ولكنّها قالت لي بنبرة تختلط فيها القوة بالرفق: «اهدأ ! اهدأ تماما». لم أكن أسمع إلا نبرة صوتها. أليس هذا صوت إنسان؟

ما يزال على الأرض إذن أناس ليسوا قضاة ولا جلّادين. يا للمعجزة ! كانت هنا، هذه المرأة ذات الصوت العذب والدافئ الذي يكاد يفيض حنانا. حدّقت بشراهة في تلك الشفاه وهي تتحدث إليّ بطيبة، بعد أن أنستني السنة الجهنمية التي قضيتها بزنزانتي أنّ الطيبة يمكن أن توجد بين البشر. ها هي تبتسم لي –أجل إنّها تبتسم لي– ما يزال هناك أناس يبتسمون في هذا العالم إذن. ثم وضعت إصبعا على شفتيها في إشارة إليّ بأن أهدأ وابتعدت برفق.

ولكنني كنت عاجزا عن الإذعان لأمرها، فأنا لم أرتو بعد من المعجزة التي رأيتها. بذلتُ جهدا كبيرا في محاولة للجلوس على سريري لأتأمّل هذا الكائن العجيب والعطوف، ولكن عندما أردت الاستناد إلى حافة السرير خانتني قواي. شعرت بأنّ يدي اليمنى قد اختفت تماما حتى المعصم في لفافة غريبة وبيضاء، لا شكّ أنها ضمادة. في البداية أخذت أتأمّلها ذاهلا ثم بدأت أدرك شيئا فشيئا أين كنت موجودا وفكرت في ما يمكن أن يكون قد حدث لي. لا شك أنهم جرحوني أو ربما أنا الذي جرحت نفسي ولهذا أنا في المستشفى.

في فترة الظهيرة أتى الطبيب لمعاينتي: كان عجوزا طيّبا وكان يعرف اسم عائلتي، تحدّث باحترام عن عمي طبيب الإمبراطور الخاص حتى شعرت بأنه كان يريد لي الخير. وبعد ذلك طرح عليّ أسئلة مختلفة أحدها أثار استغرابي. فقد سألني ما إذا كنت عالم رياضيات أو كيمياء، فأجبته بالنفي. فهمس قائلا:

–هذا غريب، فأنت لم تكفّ عن الهذيان بصيغ غريبة مثل ج3، ج 4، لم يكن أحد يفهم منها شيئا.

استفسرت عمّا حصل لي فعبرت وجهه ابتسامة غريبة وقال:

-لا بأس، كانت نوبة عصبيّة حادّة.

ثم أضاف همسا بعد أن ألقى نظرة حذرة حوله:

-في الواقع هذا شيء طبيعي فأنت معتقل منذ الثالث عشر من مارس[1]، أليس كذلك؟

وأومأت له بنعم. فغمغم:

-هذا متوقّع، لست أول ضحايا أسلوبهم في التعذيب. ولكن لا تقلق.

فأدركت، من نظرته المفعمة بالعطف ونبرة صوته المطمئنة وهو يهمس لي بهذه الكلمات، أنّه سيفعل كل ما في وسعه من أجلي.

وبعد مرور يومين، شرح لي هذا الطبيب بصراحة ما حصل بالضبط: كان الحارس قد سمعني أصرخ عاليا في زنزانتي واعتقد في البداية أنني كنت أتشاجر مع شخص غريب. ولكنه ما كاد يقترب من الباب حتى انقضضت عليه وأطلقت أصواتا متوحشة من نوع:

«ولكن هيا العب، أيها الوغد، أيها الجبان ! ».

وحاولت أن أمسكه من رقبته وفي النهاية هاجمته بعنف وهو ما دفعه لطلب النجدة.

عندما اقتادوني بعد ذلك إلى الطبيب، كنت قد نجحت في الإفلات منهم وأنا في حالة هيجان شديدة ورميت بنفسي من نافذة الممر بعد أن كسرت الزجاج وجرحت يدي –انظر ما يزال الجرح عميقا هنا.

قضّيت الليالي الأولى في المستشفى بسبب الحمّى العصبية، ولكنني استعدت وعيي بعد ذلك.

«طبعا لن أخبر هؤلاء السادة أن صحتك على ما يرام، فهم قادرون

---

(1) السيد ب اعتقل في 13 مارس ليلة دخول هتلر الى فيينا في اليوم التالي. كان الجيش الالماني قد اجتاح النمسا في 12 مارس و اعلن الامر القاضي بضم النمسا في 15 مارس 1938

على إرجاعك إلى هناك. اعتمد عليّ سأفعل كل ما في وسعي». أضاف برفق.

لم أعرف أيّ تقرير رفعه هذا الصديق النبيل إلى جلاّديّ، لكنني أدركت بعد ذلك أنه حصل منهم على ما يريده: حريتي. ربما أخبرهم بأنني بريء أو بأنّ شخصي لا يهم الغيستابو في شيء بعدما احتلّ هتلر تشيكوزلوفاكيا[1] وصار وضع النمسا محسوما بالنسبة إليه.

وألزموني بأن أكتب تعهّدا بمغادرة البلاد في ظرف خمسة عشر يوما انشغلت خلالها بعدد من الإجراءات كان لابدّ من إتمامها قبل ذلك الوقت، كاستخراج أوراق عسكرية، وشهادات من الشرطة، وشهادة ضرائب وجواز سفر وتأشيرة وشهادة طبية، إلى درجة أنني لم أجد الوقت للتفكير فيما حصل لي.

وعلاوة على ذلك، بدا لي أنّ العقل غدا مستودعا لقوى عجيبة ومنظّمة تعتمل داخله، وتبعد تلقائيا أيّ شيء يمكن أن يضرّ بالروح ويهددها، إذ كلما حاولت أن أتذكّر فترة اعتقالي أعتمت ذاكرتي على الفور، ولم أستعد شجاعة تذكّر ما حدث لي إلاّ بعد مرور بضعة أسابيع، فقط هنا، على سطح هذه الباخرة.

ستدرك الآن لماذا تصرّفت بطريقة غير لائقة ومبهمة دون شك تجاه أصدقائك. كنت أتسكع بالصدفة في حجرة التدخين عندما لمحت هؤلاء السادة جالسين أمام رقعة الشطرنج. فتسمّرت في مكاني من الدهشة والفزع، لأنني نسيت تماما أنّ بإمكاننا لعب الشطرنج أمام رقعة شطرنج حقيقية بأحجار مرئية. نسيتُ أن الشطرنج لعبة تتطلّب شريكين مختلفين تماما، شخصين حقيقيين يجلس كل منهما قبالة

(1) في مارس من سنة 1939 ألحقت المانيا النازية تشيكوزلوفاكيا و مورافيا اللتين اصبحتا تحت حماية (وصاية) الرايخ الالماني .

الآخر. وفي الواقع، كان يلزمني بضع دقائق لأدرك أن هؤلاء اللاعبين يلعبون اللعبة ذاتها التي سبق وأن لعبتها في زنزانتي خلال عدة أشهر، عندما كنت في قمة بلبلتي ألعب ضد نفسي. الأرقام التي استعنت بها في فترة التمارين الوحشية تلك، لم تكن إلا رموزا لهذه الأحجار العاجيّة. وعندما رأيت أن وضعيات الأحجار على رقعة الشطرنج كانت تتناسب مع تلك التي رسمتها في مخيلتي، تفاجأت أكثر من فلكيٍّ حدّد على الورق مسار كوكب جديد بالاستعانة بطرق علمية ثم شاهده بالصدفة في السماء مثل نجمة بيضاء لامعة وحقيقيّة. كنت أحدّق بانبهار في رقعة الشطرنج وقد رأيت فيها رسومي البيانية المجسّدة حسب التماثيل المنحوتة[1] في شكل حصان وقلعة وملك وملكة وبيادق حقيقية. ولكي أفهم المواضع الخاصة بالخصوم كنت مضطرا إلى ترجمة العالم الغامض لأرقامي إلى عالم الأحجار التي كانت تتحرك أمام ناظري. وشيئا فشيئا انتابني فضول لمشاهدة مباراة حقيقية يلعبها خصمان حقيقيان، ولهذا أقحمت نفسي في لعبتكم متناسيا أصول اللباقة. ولكنّ الخطأ الذي كان سيرتكبه صديقك أصابني بطعنة في القلب، فمنعته بحركة فطرية وعفوية كما نمنع طفلا منحنيا من فوق الدرابزين من السقوط ولم أدرك سوء تصرّفي هذا إلا لاحقا.

سارعت لطمأنة السيد «ب» وأخبرته بأننا كنا سعداء جدا بهذه الصدفة التي قادته نحونا، وبعد كل ما أسرّ لي به ستكون متعة مضاعفة لو قبل لعب مباراة مرتجلة في الغد. عندها تململ السيد «ب» وقال بلهفة:

«كلاّ، في الحقيقة لا يجب أن تتوقع مني الكثير. لن يكون ذلك إلاّ

---

(1) قبل أن تتحول كلها الى قطع بلاستيكية كانت أحجار الشطرنج السوداء في الغالب مصنوعة من خشب الابنوس (او من الخشب المطلي) و الأحجار البيضاء من العاج أو الخشب الابيض.

اختبارًا بالنسبة إليّ.. أجل أرغب في معرفة ما إذا كنت قادرا على لعب مباراة عادية في الشطرنج على رقعة شطرنج حقيقية مع أحجار حقيقية، في مواجهة خصم حقيقي.. لأن الشك ما زال يخاتلني بشأن هذا الموضوع. هل كانت تلك المباريات المئة أو ربما الألف التي لعبتها في السابق خاضعة لأحكام الشطرنج فعلا؟ أم إنّها أوهام شبيهة بهذيان من أصابته الحمّى. لعبة محمومة وخيالية نتجاوز فيها غالبا مراحل واقعية ضرورية. وأرجو ألاّ تعتقد حقا أنني أسعى إلى مقارنة نفسي ببطل عالمي أو أحاول إدعاء القدرة على هزيمته. الشيء الوحيد الذي يحيّرني ويثير اهتمامي هو معرفة ما إذا كنتُ قد لعبت الشطرنج حقّا، داخل زنزانتي، في فترة اعتقالي أم أنني كنت مجنونا وقتها. باختصار أريد أن أعرف ما إذا كنت قد تخطّيت مرحلة الخطر أم أنّني على حافتها، هذا كل ما في الأمر، وهذا هو دافعي الوحيد».

في تلك اللحظة رن جرس العشاء في الجانب الآخر من الباخرة، لقد قضينا معا دون شك ساعتين كاملتين تقريبا، لأنني رويت هنا بشكل مُجمل ما حدّثني به السيد «ب» بكامل تفاصيله... شكرته بحرارة واستأذنته في المغادرة. ولكنني كنت ما أزال على ظهر المركب عندما لحق بي ليضيف قائلا بعصبية واضحة وبشيء من التشنّج:

«هناك شيء آخر أودّ إخبارك به ! لا أرغب في التصرّف بعجرفة للمرة الثانية، لذلك هل تتكرّم بإعلام هؤلاء السادة بأنّني لن ألعب إلا جولة واحدة فقط، وستكون هذه نقطة النهاية لحكاية قديمة، هذا كل شيء. ستكون نتيجة نهائية لا بداية جديدة... لا أرغب في أن يعاودني هذا الشغف المحموم باللعب، الشغف الذي يرعبني مجرّد تذكّره... علاوة على ذلك فقد حذّرني الطبيب أيضا عندما كنت هناك... حذرني بوضوح. عندما تكون فريسة لهوس ما فإنّ خطر الانتكاسة

قائم دائما حتى بعد الشفاء منه. وبعد الشفاء التام من التسمّم بلعبة الشطرنج من الأفضل عدم الاقتراب من الرقعة مرة أخرى... أنت تفهم إذن... سألعب جولة واحدة لأعرف قيمة نفسي، ليس أكثر».

في تمام الساعة الثالثة من يوم الغد، كنّا مجتمعين في حجرة المدخنين كما هو متفق. وقد انضمّ إلينا ضابطان من طاقم السفينة، وهما من هواة ملك الألعاب، بعد أن تحصّلا على إذن خاص لحضور هذه المباراة. أما فيما يخصّ كزنتوفيك فلم يتأخّر علينا هذه المرة. وبعد توزيع الألوان بدأت جولة لا تنسى بين مواطني الغامض هذا والبطل الشهير. وكنت أتأسف لأنها دارت فقط أمام جمهور عاجز مثلنا، ولم تسجّل في تاريخ الشطرنج كما حصل لارتجالات بيتهوفن الموسيقية على البيانو. وحتّى المجهودات التي بذلناها مجتمعين خلال الأيام المقبلة في محاولة لتشكيل هذه المباراة بالذاكرة ذهبت كلّها أدراج الرياح. فقد استرعى انتباهنا اللاعبون أكثر من اللعبة نفسها، ولم نستطع تذكّر حيثيّاتها أبدا.

وفي الواقع، كان التباين الفكري الذي ميّز الخصمين ملموسا وملحوظا خلال سير المباراة. إذ تسمّر كزنتوفيك المحترف في مكانه من بداية المباراة حتى نهايتها وعيناه تحدّقان في رقعة الشطرنج، لا يرفعهما أبدا. كان يبدو أن التفكير يتطلّب منه بذل مجهود جسدي يزيد في شدّ جميع أعضائه. في حين كان السيد «ب» يجلس بكل ارتياح وكانت حركاته عفويّة وليّنة، إنه يمثّل الولع بالفنون في أعلى تجلّياته، لم يكن يرى في اللعبة إلا وسيلة للمتعة وكان يقدّم لنا شروحا لحركاته بتهكم ويشعل سيجارة بحركة لا مبالية ولم يكن ينظر إلى رقعة الشطرنج إلا قبل أن يلعب حركته بدقيقة واحدة. كان يبدو أنه يتوقع

دائما نوايا الخصم.

في البداية سار الأمر على ما يرام ولم يبدُ أنّ الخطّة قد تطورت إلا في الحركة السابعة أو الثامنة فقط، وأصبح كزنتوفيك يطيل التفكير، وفهمنا من خلال هذه الإشارة أن الصراع الحقيقي في سبيل النصر قد بدأ للتوّ، ولكن لكي أكون صادقا، فإن النسق التصاعدي للمباراة كان يشعرنا بالخيبة، كما هو الحال دائما في كل مباراة حقيقية، إذ كلما تمازجت الأحجار راسمة زخارف غريبة، زاد عجزنا عن تأويل هذا التشكيل الجديد. ولم نكن نستطيع إدراك نوايا كلّ لاعب ولا أيّ منهما كان يمضي نحو الانتصار. كنّا نرى فقط أن مختلف الأحجار كانت تتحرك مثل رافعات خصصت لخرق جبهة العدو ولكن ليس باستطاعتنا فهم الأهداف الاستراتيجية من وراء هذه الحركات لأن هذين اللاعبين الماكرين يرسمان خطّتهما قبل عدة حركات.

وشيئا فشيئا بدأ يضاف إلى جهلنا شعور بالإرهاق تأتّى أساسا من تلك الدقائق اللامتناهية من التفكير التي استأثر بها كزنتوفيك. كان يبدو جليّا أن هذا البطء يثير غضب صديقنا. ولاحظت بحيرة أنه صار يتململ أكثر فأكثر فوق كرسيّه كلما طال وقت المباراة. كان يشعل سيجارة تلو الأخرى بحركة سريعة. ثم يمسك قارورة ماء معدني ويتجرّع على عجل كأسا تلو أخرى. بدا واضحا أنه يحسب حركاته مئة مرة أسرع من كزنتوفيك. وعندما كان هذا الأخير يقرّر بعد وقت غير محدود من التفكير دفع حجر بيده الثقيلة كان صديقنا يبتسم ببساطة كأنه توقّع هذه الحركة منذ زمن طويل. ولا يتردد في الردّ عليها فورا. كان ذكاؤه بلا شك قد ساعده في توقع كل الإمكانيات المتاحة لخصمه. وكلما تأخر كزنتوفيك في تقرير حركته المقبلة زاد نفاذ صبر الآخر ولهفته. وصارت شفتاه تتشنجان بسرعة وهما تعبّران على انزعاج،

كثيرا ما يصل حدود التلويح بالعداء الصارخ.

لكن كزنتوفيك كان يحتفظ دائما ببرودة أعصابه. وكلما قلّ عدد الأحجار فوق رقعة الشطرنج، طال وقت تفكيره، وغرق في كآبته وصمته.

مرّت ساعتان كاملتان وخمس عشرة دقيقة حين بلغا الحركة الثانية والأربعين. كنّا جالسين حول طاولة اللعب، مرهقين للغاية ولا مبالين تقريبا. وقد غادر أحد ضباط الطاقم، في حين فتح الآخر كتابا وظلّ يقرأ دون أن ينظر إلى رقعة الشطرنج إلا في اللحظة التي ينفّذ فيها أحد الخصمين هجمته. ولكن فجأة، وبعد أن لعب كزنتوفيك حركته، وقع شيء غير متوقع. فما إن رأى السيد «ب» أن كزنتوفيك كان يمسك الحصان ليحرّكه حتى التوى على نفسه مثل قطّ يتهيّأ للقفز. وبدأ جسمه يرتعش بالكامل، ثم وضع الملكة بحركة واثقة وصرخ منتصرا: «انتهينا... لقد حسم الأمر».

ثم مال إلى الوراء مسندا ظهره إلى الكرسيّ، وعقد ذراعيه على صدره، ورمى كزنتوفيك بنظرة مستفزة وعيناه تتقدان. فانحنيا كلّنا دون إرادة منّا على رقعة الشطرنج لنفهم الحركة التي أعلن من خلالها عن الانتصار. فلم نلحظ أوّل الأمر شيئا يهدّد كزنتوفيك بالخطر. وقلنا لا شكّ أن الانفعال البادي على وجه صديقنا يشير إلى تطوّر لاحق في الوضعية لم نتمكن من توقعه، نحن الهواة وقصيري النظر. وحده كزنتوفيك لم يهتز أمام الإعلان المستفز لخصمه. بل ظل هادئا ومحافظا على رباطة جأشه كأنّه لم يسمع هذه العبارة العدوانية: «انتهى كل شيء». وكأنّ شيئا لم يقع.

توقّفت أنفاسنا فجأة كما لو أنّ الأمر خارج عن إرادتنا. وتناهت إلى أسماعنا تكتكةُ الساعة الموضوعة على الطاولة لاحتساب المدة

الفاصلة بين حركتين، مرت ثلاث دقائق ثم سبع فثمان... وكزنتوفيك لا يحرّك ساكنا. بدا لي أن المجهود الذي كان يبذله في التفكير يزيد في اتساع منخاريه. وأصبح الانتظار لا يُطاق. فوقف السيد «ب» مباشرة وشرع يذرع حجرة المدخنين جيئة وذهابا، بخطى بطيئة في البداية ثم زادت سرعتها شيئا فشيئا. كانوا ينظرون إليه جميعًا وقد علت وجوههم الدهشة أمّا أنا فقد زادت حيرتي عندما لاحظت أنه كان يتحرك رغم انزعاجه الشديد في مساحة واحدة، كما لو أنّ حاجزا غير مرئي كان يوقفه في الفراغ وسط الحجرة ويجبره على الرجوع إلى الوراء. وأدركت وأنا أرتعش أنه كان يعيد –دون أن يشعر– نفس عدد الخطوات التي سارها فيما مضى وهو في زنزانته. أجل مؤكد أنه ذرع المكان جيئة وذهابا ويداه مضمومتان وكتفاه غائرتان، وبارقة الجنون تتقد في نظرته الثاقبة والمحمومة.

كان في هذه اللحظة يبدو في كامل حضوره الذهني، لأنه ظلّ يلتفت من وقت لآخر نحو الطاولة ليرى ما إذا كان كزنتوفيك قد لعب حركته أم لا. ولكن مرت تسع دقائق ثم انتهت الدقائق العشر، وأخيرا وقع شيء لم يخطر ببال أحد منا، فقد رفع كزنتوفيك يده الثقيلة ببطء بعد أن ظلت جامدة على الطاولة. كانت أنظارنا كلنا مصوّبة نحوه يحدونا فضول لمعرفة قراره. لكن كزنتوفيك لم يلعب بل دفع أحجار الشطرنج بظهر يده. ولم ندرك على الفور أنه كان ينسحب من المباراة ويستسلم، وبعد ذلك تيقنّا جميعا بأنه هُزم. لقد حصل فعلا ما لم يكن في الحسبان: بطل العالم الفائز في جميع المسابقات العالمية يعترف بعجزه أمام غريب، شخص لم يلمس رقعة شطرنج منذ عشرين بل خمس وعشرين سنة. لقد هزم صديقنا الرجل المغمور أقوى لاعب في العالم كلّه في مباراة عامة.

نهضنا من مقاعدنا واحدا تلو الآخر يغمرنا شعور كبير بالتأثر وكان على كلّ واحد منّا أن يقول شيئا أو يفعل شيئا ليعبّر عن فرحته بعد الخوف الشديد الذي انتابه. فيما بقي كزنتوفيك وحيدا جامدا في مكانه محتفظا بكامل هدوئه. وبعد وقت طويل رفع رأسه وحدّق في صديقنا بنظرة متحجرة ثم سأله:

-هل ترغب في جولة أخرى؟

-طبعا. أجابه السيد «ب» بحماس أثار حزني.

وعلى الفور جلس وبدأ يضع الأحجار بعجلة محمومة دون أن يترك لي ما يكفي من الوقت لأذكّره بقرار الالتزام بمباراة واحدة. كانت يداه ترتعشان بشدّة إلى درجة أنه أفلت بيدقا من بين أصابعه مرتين وتدحرج على رقعة الشطرنج. فتحول الضيق الذي شعرت به قبل لحظات أمام هياجه الغريب إلى لوعة بالغة. وصار من الواضح أنّ هذا الرجل الهادئ والمسالم كان فريسة لحماس شديد، فقد عادت زاوية فمه تختلج مجدّدا من فرط التشنّج. وصار جسمه كله يرتعش كأنما ينتفض من حمّى مفاجئة.

«هذا يكفي!» همست له برفق «لا تلعب الآن! هذا يكفي بالنسبة إلى اليوم. أنت مرهق». فقهقه عاليا وقال بشراسة: «مرهق. ها ها. كان باستطاعتي أن ألعب سبع عشرة جولة خلال هذا الوقت لولا هذا البطيء. ما يرهقني في اللعب معه هو أن أظلّ متّقد الذهن يقظا بلا طائل». ثم توجّه إلى كزنتوفيك وقال له بلهجة عنيفة وفظة تقريبا: «هيا ابدأ الآن.».

ألقى عليه كزنتوفيك نظرة هادئة متأنية، ولكنها تشبه في قسوتها لكمة بقبضة محكمة.

أصبح كل خصم يواجه خصمه بتوتّر حاد وكراهية جامحة. لم يعودا زميلين في لعبة يحاول كل منهما من خلالها أن يختبر قوته وهو يلهو، بل صارا عدوّين أقسم كل منهما على تحطيم الآخر.

تأخّر كزنتوفيك كثيرا قبل أن يلعب حركته الأولى، فانتابني شعور قويّ بأنه كان يتعمّد ذلك. لقد أدرك بالتأكيد أن البطء يرهق خصمه ويثير أعصابه فاستغل ذلك لصالحه كخبير متمرس. وفي ظرف أربع دقائق افتتح اللعبة بطريقة سهلة ومألوفة جدا، إذ حرّك البيدق الذي يحجب الملك مربعين إلى الأمام، وعلى الفور قدّم السيد «ب» هو الآخر البيدق ذاته بنفس الشكل. ثم عمد كزنتوفيك إلى التريّث مرة أخرى وطالت فترة الانتظار وفاقت كل احتمال، حتى أننا صرنا ننتظر ودقات قلوبنا تتسارع كما ينتظر أحدهم صوت الرعد بعد رؤية برق باهر لكن الرعد تأخر بل تأخر جدا.

ظل كزنتوفيك ثابتا في مكانه، يفكّر في هدوء وتؤدة، فزاد يقيني بأنه يتباطأ بشكل متعمّد وماكر، ولكنه أتاح لي الوقت الكافي لمشاهدة السيد «ب».. لقد شرب ثلاث زجاجات كاملة من المياه فتذكرت العطش الشديد الذي كان يتملكه خلال فترة اعتقاله. وفي الواقع بدت عليه أعراض استثارة غير طبيعية، فقد كان جسمه متعرّقا وجرح يده يشتد احمرار ويغدو أكثر بروزا. وعلى الرغم من ذلك، ظلّ متحكما في نفسه. ولكن، عندما غرق كزنتوفيك في تأملات تكاد تكون لا تنتهي خلال الحركة الرابعة، فقد سيطرته على نفسه تماما وخاطبه بشدة: «حسنا، هيّا ألن تلعب أخيرا؟».

فرفع كزنتوفيك عينيه ببرود وقال: «حسب علمي أننا حدّدنا عشر دقائق كوقت فاصل بين حركة وأخرى ومن حيث المبدأ فأنا لا ألعب أسرع من هذا».

قضم السيد «ب» شفتيه ولاحظت أن قدمه أخذت ترتعش بشدة تحت الطاولة وكانت سرعتها تزداد أكثر فأكثر فغمرني غضب صرتُ عاجزا عن كبحه رافقه حدس رهيب بأنه سيفقد عقله دون شكّ. وفي الحركة الثامنة وقع حدث جديد: لم يعد السيد «ب» الذي كان يشعر بصعوبة في تحمل هذه الانتظارات يقوى على تمالك نفسه أكثر، فانحنى إلى الأمام ثم إلى الخلف وبدأ بشكل إرادي ينقر على الطاولة بأصبعه.

ومرة أخرى، رفع كزنتوفيك رأسه الثقيلة وقال: «هل يمكن أن تكف عن النقر؟ هذا يزعجني، لا أستطيع أن ألعب تحت هذه الظروف».

ها، ها... ضحك السيد «ب» ضحكة قصيرة وقال: «أجل هذا واضح».

فاحمر وجه كزنتوفيك، وسأله بلهجة حادة وقبيحة: «ماذا تقصد؟».

فعاد السيد «ب» يضحك من جديد ضحكة جافّة وشريرة. ثم قال: «آه لا.. لا شيء، كل ما في الأمر أن أعصابك هائجة».

أطرق كزنتوفيك برأسه ولاذ بالصمت. ثم انتظر سبع دقائق قبل أن يلعب الحركة المقبلة، وتواصلت الجولة مُتّبعةً هذا النسق القاتل، كان عناد كزنتوفيك يزداد أكثر فأكثر وفي النهاية استغرق أطول وقت ممكن قبل اتخاذ قراره. ومن فترة إلى أخرى كان سلوك صديقنا يزداد غرابة. بدا أنه نسي المباراة الحالية وانشغل بشيء آخر. توقف عن المشي في الغرفة جيئة وذهابا وظل مسمّرا على كرسيّه وهو يحدّق إلى الفراغ بعين منهكة ويغمغم بكلمات مبهمة دون توقّف. هل كان مستغرقا في وضع خطط للعبة لا نهاية لها أم أنه بدأ يلعب مباراة جديدة في ذهنه كما ظننت؟

على كل حال، صار علينا أن ننبّهه كلما جاء دور كزنتوفيك لنعيده من غفلته. ولكنه لا يستغرق أكثر من دقيقة واحدة ثم يعود إلى حيث كان. فازداد يقيني بأنه نسينا جميعا بما في ذلك كزنتوفيك نفسه، وبأنه أضحى فريسة لنوبة جنون صامتة يمكن أن تتفجر في أي لحظة. وسرعان ما حدث ما لم يكن في الحسبان. ففي الحركة التاسعة عشرة، لم يكد كزنتوفيك يلعب دوره حتى دفع السيد «ب» بفيله[1] أربع خطوات دون أن يلقي مجرد نظرة على رقعة الشطرنج، وهو يصرخ بقوة جعلتنا نقفز في أماكننا:

«كش ! كش الملك !».

انحنينا كلنا على رقعة الشطرنج لرؤية هذه الحركة التي لا مثيل لها ولكن ما حصل خلال دقيقة واحدة خيّب كلّ توقّعاتنا. فقد رفع كزنتوفيك رأسه ببطء شديد وتأمّلنا واحدا واحدا لأول مرة وكأنه اكتشف وجودنا بغتة. وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة مفعمة بالسخرية والرضى، وكأنّ استمتاعه بهذا المشهد فاق كل الحدود. وعندما فرغ من التلذّذ بهذا الانتصار المبهم في نظرنا، خاطبنا بأدب يطفح بالتأثّر والاصطناع:

«آسف ولكن لا أرى أثرا للهزيمة، هل يرى أحد من هؤلاء السادة ذلك؟».

تفحّصنا الوضعية ثم استدارت نظراتنا الحائرة نحو السيد «ب»... فقد كان ملك كزنتوفيك محميا بالكامل بفضل البيدق، وأيّ طفل صغير يمكن أن يدرك ذلك، لم يمت الملك إذن، فأخذنا نتساءل بحيرة: هل كان صديقنا العصبي قد حرّك دون وعي منه حجرا على

---

(1) كلمة فيل باللغة الالمانية der lanfer و لكن هذه اللفظة على علاقة بالجنون القاتل عند اموك. (أقصوصة لزفايغ بعنوان اموك)

وجه الخطأ؟

أعاده الصمت المطبق الذي خيّم على المكان إلى وعيه فتفحّص بدوره رقعة الشطرنج وقال بغمغمة عنيفة: «ولكن يجب أن يكون الملك في المربّع ف7. إنه ليس في مكانه أبدا ! لقد أخطأتم، كل ما على رقعة الشطرنج خطأ. هذا البيدق هناك هو في الصف ج5 وليس في ج4. هذه مباراة مختلفة تماما... إنها...».

وتوقّف فجأة عن الكلام، فأمسكته من ذراعه وقرصته بقوة استشعرها رغم تيهه المحموم، فالتفت ونظر إليّ بعينين مسرنمتين:

-ماذا حصل؟ ماذا تريد؟

فهمست له بكلمة واحدة لا غير:

-تذكّر !

ثم مررت بإصبعي على الجرح الذي كان يحمله في يده. وهو يتبع حركتي دون وعي وعيناه شاخصتان، تحدّقان إلى احمرار الجرح. وفجأة أخذ يرتعش، وهزت الرعدة كامل جسده.

«ولكن حبا بالله» همس لي وقد ابيّضت شفتاه، «هل قلت شيئا غريبا؟ هل قمت بأمر مريب؟... هل عدتُ إلى...؟».

كلا، قلت له برفق. ولكن توقّف عن اللعب فورا. لقد حان الوقت لذلك. تذكّر ما قاله الطبيب.

توقف السيد «ب» فورا وقال وهو ينحني أمام كزنتوفيك بكل أدب: «أرجو أن تغفر لي هذه الإهانة الحمقاء. فما قلته للتوليس سوى عبث، بطبيعة الحال أنت الفائز». ثم التفت إلينا وقال: «أعتذر لكم أيضا أيها السادة ولكنني سبق وحذّرتكم من المغالاة في الاعتماد عليّ، اغفروا لي هذه الزلّة السخيفة، ستكون هذه آخر مرة في حياتي ألعب

فيها الشطرنج».

وانحنى مرة أخرى بالطريقة ذاتها، الطريقة المتواضعة التي ظهر بها بيننا أول مرة، وكنت الوحيد الذي يعلم لماذا لن يلمس هذا الرجل رقعة الشطرنج في حياته بعد الآن. أما الآخرون فقد انتابهم الإحساس بأنه نجا بأعجوبة من خطر ما.

«الأحمق اللعين» غمغم ماك كونور مُحبَطًا.

وكان كزنتوفيك آخر من قام من كرسيّه بعد أن رمق المباراة التي كانت في بدايتها بنظرة أخيرة ثم قال برحابة صدر:

«يا للخسارة... لم يكن اللعب سيّئًا لكي ينتهي هذه النهاية. أمّا صديقكم، على الرغم من كونه من الهُواة، فإنّ له موهبة مذهلة».

ألف راء

علامات في الرواية العالمية

سلسلة يديرها ظافر ناجي وشوقي العنيزي

صدر مؤخرا ضمن هذه السلسلة

فوضى الأحاسيس

المؤلف: ستيفان زفايغ

البلد: النمسا

ترجمة: ميساء العرفاوي

ترومبيت

المؤلفة: جاكي كاي

البلد: أسكتلندا

ترجمة: عماد الأحمد

ألعاب خطرة

المؤلف: أوغوز آتاي

البلد: تركيا

ترجمة: بكر صدقي

قطار الليل إلى لشبونة

المؤلف: باسكال مرسييه

البلد: سويسرا

ترجمة: سحر ستالة

هيّا نشتر شاعرا

المؤلّف: أفونسو كروش
البلد: البرتغال
ترجمة: عبد الجليل العربي

المؤتمر الأدبي

المؤلّف: سيزار آيرا
البلد: الأرجنتين
ترجمة: عبد الكريم بدر خان

أنشودة المقهى الحزين

المؤلّفة: كارسن ماكالرز
البلد: أمريكا
ترجمة: علي المجنوني

المتطوعون

المؤلّف: مواسير سكلير
البلد: البرازيل
ترجمة: أماني لازار

الحزينة

المؤلّف: كارلوس فوينتس
البلد: المكسيك
ترجمة: جمال الجلاصي

ستيفان زفايغ

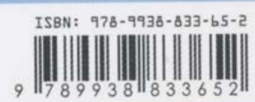
لاعب الشطرنج

كيف السبيل إلى الإحاطة بعمل روائيّ صغير إلى هذا الحدّ يكاد يشفّ لبساطته ووضوحه وكلّ ما فيه يشدّنا إلى متاهة وسمها الكاتب عمدًا بـ «رقعة الشطرنج»؟ وأيّ مدخل قد يسعفنا في استكناه خبابا أبطاله والكلّ لاعبٌ والكلّ مشاهِدٌ في نفس الوقت؟

كتب ستيفان زفايغ إلى صديقه هرمان كيستن قبل انتحاره بخمسة أسابيع: «ليس هناك شيء مهم أقوله عن نفسي. كتبت قصة قصيرة حسب أنموذجي المفضّل البائس، وهي أطول من أن تنشر في صحيفة أو مجلة وأقصر من أن يضمّها كتاب وأشد غموضا من أن يفهمها جمهور القراء العريض وأشد غرابة من موضوعها في حد ذاته».

إنّ «لاعب الشطرنج» على بساطتها رواية مراوغة ظاهرها حكاية طريفة ممتعة عن سيرة لاعب شطرنج، وباطنها رسالة وداع وجّهها الكاتب زفايغ إلى الإنسانية جمعاء بعد أن فقد الأمل في الإنسان كما حلم به ودافع عنه، الإنسان الذي تحوّل إلى آلة تدمير لا هاجس لها غير السيطرة والربح: رجل الدين، رجل الأمن، المحامي، التاجر، لا أحد نجا من الإدانة، ولا أحد حافظ على هويّته في لعبة التحوّلات. لقد غربت الشمس وآن الأوان لكي نقول وداعًا.

شوقي العنيزي


ISBN: 978-9938-833-65-2

